إفكٌ

(رواية)

ليله الفاوي

إهداء

ولأن القاسية قلوبهم أكثر، وعلى الرغم من هذا، فأنا لا أهدي إليهم كتابي..
فقط تمنياتي لهم بجحيم ممتد.. أما دون ذلك.. هذا لكم

أمي وأخوتي ونفسي وكل من ساندني

مصممي الرائع... صديقاتي الصالحات والأسوياء من حولي....

ليلة الفاوي

قد يحدث وأن تكون خياراتنا، هي الأسوأ الذي حل بأيدينا على مدينة قلوبنا....

ضعوا أحزمة الأمان وتلقوا الصدمة.. لأن صدمتكم ستجدونها عالقة بين السطور... كنا نستحق للغاية تلك المعجزة.

كنا لها.

. لكن من أفسدها... لم يكن أبدًا لها

البداية

تململت في فراشها كجثة تعود للحياة، تحت غطائها القديم القطني المشجر بورق جاف يعطي أثره على ذلك الوجه الباهت النائم بشعر قصير مشعث وهي تكشف عنه غطاءها تسترق النظر بنصف عين مفتوحة لشعاع الشمس المتسلل عبر حواجز نافذتها يتعامد مع وجهها النحيف، تحاشت الضوء بضيق، توليه ظهرها بجبهة منكمشة تعامدت خطوتها، تتثاءب بكسل وهي تفرك جبهتها بكفها تتمتم بمزيد من الضيق:

_أف، غبية ، أكره الأطباء، أبغض العيادات.

أغمضت عينيها تحاول تجاوز تلك الفكرة المرهقة المعلقة برأسها، فكرة تعاود القفز في مخيلتها مجرد أن تستعيد وعيها بل وتجاوز الأمر بشاعة! فأصبحت تطاردها في أحلامها، تجهل طريقة لتجاهل حماقة ما يحدث؛ سئمت نفسها واشتكى جسدها بنهاية أسبوع مرهق وهي تسعى خلف شروط تلك الوظيفة البائسة بالحصول على تقرير كشف طبي دليل سلامتها... على أساس ستعمل بوزارة الداخلية!

سخرت من سعيها بل ومن نفسها حين

أرخت نظرتها لبعيدٍ نحو فستانها الأبيض الباهت بنقاط سوداء، معطفه الأزرق أعلاه وحجابها الأبيض الملفوف حول عنق شماعتها المكسورة..

تهكمت من بساطته وقارنت بين سعيها وما لا تستطيع الحصول عليه، مجرد فستان ترتديه بتواصل لثلاثة أشهر تخرج ثم تعود لغسله ثم ارتدائه، ترققت نظرتها إليه، ترسل إليه نظرات معتذرة تشع أسفاً، وكأنها تشاركه، تشكو محنتها وحاجتها ليقاوم بجانبها تخشى أن يتبدد الآخر

وغامت عينيها لأفكار أشد بؤساً بوفاة والدها، أمنها وسلامتها بذلك الحادث الأليم منذ أعوام، مازالت تقف على أعتاب يومها هذ ا حين سقط أمامها صريعًا، آخر ما رآه كانت هي... بنت الرابعة عشر..... ثم يبدأ بعده كل شيء يخفت...

سالت دمعتها رغمًا وهي تتطلع لأغراضه داخل دولابها المنزوع الأدرف بنظرة غارقة بالحسرة والحزن، يوم أن اختبأت هنا تلملم حاجته تضمها كان الموت سيستولي عليها كذلك، لو لم تنبشها وتهرع لإخفائها، ترميها تحتضنها بجسدها داخل أدرفه كجزء منه لا ينفصل، لساعة لا تستطيع أن تنفصل، تختبئ في أثره الأخير تغمر وجهها ليمتص دموعها ما تبقى من ذكراه فيهم ليحتويها، تخشى يوما أن ترتبها فتدرك أنها ستبقى دون حياة، على حالها، ثباتها، ترتيبها، أو.... أنه لن يعود، تتعلق بشيء محال، لا بأس ببعض الأمل حتى وإن كان مستحيلًا!

انسحبت من فراشها ببطء وشدت قامتها القصيرة بجسدها النحيف بنفس الارتخاء، فغامت الدنيا حولها بدوار جعل كل شيء كضباب أوجع رأسها فاستندت على لا شيء لتستقر على مقدمة سريرها الخشبي الصغير تتشبث به كطوق نجاة من دوامة غرق، تغمض عينيها تحاول أن تعود لطبيعتها كما اعتادت كلما وقفت فجأة، فعادت تستعيد وعيها من جديد وكأن شيئًا لم يكن

أدارت عينيها في الشقة الصغيرة حولها، غرفتان صغيرتان، وصالة ضيقة وحمام جانبي يلتصق به مطبخ مساحته مترين خلف ستارة قماشية بيضاء، لا علاقة لها بالأناقة، يغفر لها وجودها نظافتها، أثاث قديم إلى حد نفاذ الاستخدام، ما يُبقي عليه سوى نظافته، نصف صالون نجا باقيه من معركة الزمن، أريكة، ومقعد، يكسوهم الأقمشة البيضاء، وقد أنهكهما الغسيل إلى حد الذوبان فتماسكا بجانب الأريكة المستندة بعجز تقاوم الانهيار تستند إلى جدار من جدران تساقط لونها من التشقق، لوت شفتيها بعبوس لذلك الصوت الحانق على يسارها واقتربت منه تتطلع لصنبور الماء وهو يسرف بدموعه بداخل الدلو الصغير تحته..

تأففت من رتابة الصوت، وغسلت وجهها من مياه الدلو سريعًا تتهرب من دموع الصنبور، الصوت يضايقها فتهرب إلى المطبخ أو ذلك الجانب الضيق بأشيائه البسيطة وبدت تعرف ما تريده جيدًا ففتحت الثلاجة عبر أكرة جانبيه للقفل لولاها لسقط الباب لتخطف قطعة جبن بحجم المكعب الصغير، جانبها كسرة خبز

نظرت للاثنين بكفيها لتفكر لدقائق بانشغال ثم تعود لقطع قطعة الجبن لنصفين، تأخذ النصف بكسرتها والآخر عادت تدسه بالصحن وتعيد إغلاق الباب

أخذت في التهام طعامها حتى وصلت إلى حجرتها تتطلع سريعًا لساعة يدها تتمتم وهي تتطلع لفستانها المعلق:

_لا بأس تحملني اليوم، آخر خطوة وسأحصل على ذلك التقرير الطبي، ثم أجعل لك رفيقًا تتبادلان المهمات

وهمت لتغيير ملابسها

****

في العيادة

شعرت بتنميل يسري في مقدمة قدمها، تتطلع لقدميها بحرج من نظرات تلتفت رغمًا لحذائها القديم وقد تمزقت مقدمته دون داعي!

أو لأنها ارتدته بعدد مرات لا تذكر منها شيئًا إلا أن الطريق اشتكى السير عليه منها، لا شك تحمل حتى انفجر فضمت أصابعها بحيث لا يزيد الأمر بشاعة ثم سحبتهما تحت المقعد تخفي كارثتها بكل ألم تتحامل بشعور الحرج

_آنسه آيات، دورك

التفتت إلى الممرضة السمينة هادئة المحيا بنظرة تضج بالحرج، وقالت على استحياء وهي تلملم حجابها حول وجهها بتوتر:

_ألا يمكنك إعطائي ذلك التقرير، والذهاب؟

تأملت الممرضة وجهها بتقاسيمه البسيطة المحببة يميزه عيون حزينة هادئة برغم توترها تعض شفتيها الممتلئتين بحرج أحقن وجهها بلون الضباب عاقدة

جبهتها بمزاج سيء تكاد أن تسقط أرضًا على وجهها من توترها فهزت الممرضة رأسها تعجبًا وقالت لها بابتسامة رقيقة:

_عليكِ لقاء الطبيب أولًا

ثم أشارت لها باتباعها وهي ما زالت على حالة تعجبها لتلك التي تتلكأ خلفها.

****

.

تلك الرائحة لأي عيادة طبية هي بمثابة جحيم للبعض مهما بلغ تعقيمها، رائحة المعقمات نفسها جزءًا من ذلك الجحيم، أدوية بغيضة وأدوات تتقافز عليها الأمراض، وطبيب سيخرج الآن يتكئ على أي شيء ليصل لخلف مكتبه، هيأت مشاعرها تجاهه بالازدراء قبل أن يخرج من خلف ستار الكشف البيضاء، وأحنت رأسها أرضًا تفكر وهي تتابع خطواته نحوها

سآخذ ذلك التقرير الطبي، وسأحصل على الوظيفة، قال السيد رؤوف الضال أنه سيمنحني الإشادة للحصول على الوظيفة، هو فقط يرد لي دين إعانة أولاده في مراجعة ما قبل الامتحانات، منزلهم كان مرتبًا لكنه كأي بيت راتب سيده يتجاوز العشرة آلاف، قال أنني سأحصل على ستمائة وخمسين٠ جنيها في بداية الوظيفة وإن اجتهدت سيكونوا سبعمائة، لا بأس هذا كافي.

وانحدرت نظرتها بحسرة لمقدمة حذائها المقطوع تهديه أملاً بنهاية تفكيرها حين اقتحم حذاء آخر أمام مرآها، حذاء رياضي أسود أنيق تابعت بعينيها، ترفع نظرها ببطء

حذاء رياضي أسود، جوارب سوداء لسيقان نحيفة مشعرة مكشوفة..... رفعت رأسها تقطع المسافة بنظرة واحده تواجه صاحبها

كان شابًا في الثلاثين بوجه جميل له أنف صغير وفم متكور وعينان بنيتان واسعتان وشعر كث ناعم تتسلل إحدى خصلاته القصيرة على جانب جبهته حليق

اللحية والشارب، هادئ الهيئة، يرتدي قميصًا رياضيًا أسود وتحته شورت قصير يغطي عند ساقيه يرتدي روبًا أبيض بإهمال لا يبدو كطبيب لولا نظارته المستطيلة وهو يقول باهتمام بينما يتطلع للتحاليل بيده:

_آيات رياض محمدي.

توقف يهمهم بانشغال وهو يتفحص الأوراق والأشعة بيده بكل اهتمام بينما تلاشت الدهشة سريعًا من ملامحها واعتلى التساؤل وهي تقول دون ترتيب:

_أجل أنا آيات، أريد فقط... ذلك التقرير الطبي... الذي تحتاجه إدارة العمل... أنا أتقدم لوظيفة تشترط ذلك، قمت بزيارة طبيب، اسمه عندك بالإنجليزية تقريبا شفيق فطلب مني تحاليل وتلك الأشعة وحولني لعيادتك قال إنك ستفهم أكثر.. أظن أنك متخصص في تلك التقارير أليس كذلك؟

تطلع إليها من خلف الأوراق بيده لثوانٍ يتفحصها بغموض ثم قال قولًا واحدًا بجدية:

_أريد إعادة التحاليل

هتفت بمبالغة :ماذا!! لا يمكن، لقد اقترضت ثمنها ولم أعده، بالكاد أستطيع تجاوز فكرة أني قمت بعمل تحليل بهذا المبلغ بالأساس.

تجاهل قولها ليعود خلف مكتبة ومازالت التحاليل بيده يقبض عليها بشيء من الحيرة ليلوح بالأخرى قائلًا: أريد التأكد من شيء..

لفظت ملامحها باللامبالاة وهي تهز رأسها قائلة: تأكد أنني لن أعيدها، كل ما تحتاجه أمامك، فقط أعطني ذلك التقرير لأغادر

وأضافت متمتمة بازدراء ظاهر وهي تخبئ أنفها بطرف حجابها:

_فأنا لا أطيق رائحة العيادة.

بدا أنه سمع جملتها الأخيرة فرفع لها عينيه بحدة ثم نزع نظارته ووضعها جانبًا يتخلى عن مكانته بوجه طفولي وهو يقول لها بلمحة عناد:

_هل تريدين مني إخبارك ما بالتحاليل قبل التأكد منها؟!

ردت بإصرار: لا أريد، فقط أريد ذلك التقرير.

هتف يواجها بنبرة حازمة: لا يهمني تقريرك الطبي، عملي هو فحصك وعلاجك

تهكمت تحدث نفسها بتفكير ساخر: علاجي! لم آتي للعلاج بالأساس، أتيت للحصول على تقرير للعمل و

قاطعها وهو يحوقل هامسًا: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي، ما هذا الغباء!

همست بعبوس: ماذا؟!!

قال ومازالت قبضته على التحاليل تزداد تشديداً وهو يردف بجدية لفظت على ملامحة الطفولية فزادته عمرًا وهو يقول: هناك ما هو غير سار يا آنسة، يجب التأكد منه، لا أريد أن أسبب لك صدمة الآن قبل التأكد م

قاطعته بجمود أخرسه :فقط أريد التقرير

تسمر أمام تجاهلها لحديثه، وزاده الغضب بقولها الأخير فرمى التحاليل من يده وهتف بها بعصبية: تبًا لتقريرك، أنا أحذرك من أمر يخص صحتك، حياتك، وأنت تتحدثين عن تقرير لعين بائس، هل أنت مخبولة؟!!

ترقب ملامحها المنزعجة بنهاية حديثه بينما بدت لم تبال بما قبله وهزت كتفيها لتقول بتبرير مؤكدة ذلك: لست مخبولة، العمل يشترط هذا.

كاد ينفجر بها وهو يتطلع لها بوجه محتقن عابس لكنه تماسك يشيح بحدة بوجهه بعيدًا ثم عاد ليقول بجدية ونفاذ صبر: التحاليل والأشعة تظهر ورمًا.

بدت كأنه لم يقل شيئًا ومازالت على حالتها، اللامبالاة تتلبسها، منح نفسه مراقبة انفعالها الذي بدر منها دون وعي حركه كفها المتوترة وهي تمسح بأصابعها على جبهتها تجفف عرقا لم يخرج، وكأنها مازالت تستوعب حجم مصيبتها، يسترق ارتعاشة شفتيها وجفول عينيها وغصة تحرك لها حلقها بذقنها يستشعرها تحت حجابها وهي تبلع ريقها بصعوبة، امتلأت عيناها الاثنتان بالدموع...وطفرت حبات العرق على أنفها الطويل الجميل.

انتبه لانفعالها بكل حواسه !

بلغت صدمتها حفنة أعمت شعورها بما حولها، بدت صادقة بانفعالها المكتوم وكأن هناك ما يجري بداخلها تجاهد لإخفائه بضراوة تهجر طبيعتها لتتسلح بالقوة، ينفلت من مقاومتها زئير ألم عبر لمعة عينيها الحزينتين المظلمتين باليأس، فتراخت ملامحه عند هذا الحد ليقول بنبرة مشفقة يتخللها نظرة عارية بالأسف

_علينا إعادة عمل التحاليل والأشعة للتأكد، ما يظهر لي هو حالة متأخرة للورم بشكل لا يمكن علاجه، فقط عليك التأكد، أرى صحتك جيدة لا يظهر عليك أي أعراض، قد يكون خطأ من المعمل، فقط نريد التأكد نحن بصدد أمل و

_سأخسر الوظيفة.

همست بجملتها بانهزام كامل جعله ينسى قولها أمام هذا الانهزام والانكسار الذي نطقتها به، تخفي بأعماقها الألم الحقيقي لتظهر آخراً أقل خيبة، أو هي صدمة دفعتها لتلفظ أي شيء، يتأمل وجهها الذي شحب فجأة فنفى الأمل الأخير

بطلبه، وراقب انقباض كفها وتضرج وجهها، تعبث أصابعها بأهداب الفستان ولكن.. لم تنبس بكلمة!

قبل أن تشد قامتها فجأة لتقف لثوانٍ تحاول رؤية ما حولها من حالة الدوار الشديدة، تماسكها الخارجي قد تمكن من خداعه فلم يلاحظ ما حال بها وهو يراقب انسحابها المرهق بخطوات تائهة فهب من مكانه هاتفًا:

_اذهبي لمعمل ألفا في شارع حكيم باشا، سأحدثهم بتوصية عليكِ، وغدًا تأتي لي بالتحاليل الجديدة.

لم تتطلع له بل غادرت المكان كما دخلت بكل هدوء.. تسقط عن نفسها الحرج والتوتر ويعتلي اليأس والعجز موضعه، تجر نفسها لبعيد، كما أتت، دون أن تبالي بحرجها من حذائها المقطوع أو ترقب عيون الممرضة القلقة لحالتها التائهة..... العاجزة

****

بعد أيام

التفت بفراشها تتطلع لغروب الشمس في الأفق البعيد وهو يختبئ خلف بناية جارهم العجوز، الذي أصر على بناء طابق آخر فوق ثلاث طوابق ليحجب الضوء عنها شيئًا فشيئًا كلما اعتلى ، تترقب انسحاب الشمس في آخر لحظات غروبها، سابقًا كانت ترى المشهد كاملًا، اليوم هي ثوان بعد أن حجبت البناية السماء عنها.. كلما مر الوقت تظلم

كلما مرت الدقائق يعتم كل شيء

وكم مرت... تستطيع أن تعرف، لقد مرت ثلاثة أيام منذ آخر مرة رأت الشارع، تتذكر زيارتها مجبرة للسيد رؤوف علها تجد وساطة تتجاوز عن ذلك التقرير البائس وأخذت وعده بالاتصال وغادرت.

حاولت العودة للنوم، وتجاهل صوت تنقيط ماء الصنبور الرتيبة، المستفز للأعصاب، المدمر للنفسية، تأخذها فكرة معذبة، سأموت قبل سقوط النقطة التالية، وتسقط لتتجدد الفكرة، والترقب، ذلك الصوت بالتقاط الماء بصفيح الحوض يقبض قلبها، لم تضع هذه المرة دلوًا، شيء منها لا يثق أنها ستعود لاستخدام مائه وتركت الصنبور يبكي، تتسرب دموعه أفضل من أن تتكوم فتفيض ولن يجد من يلملم بعدها، أغمضت عينيها، لا لم يعد الإرهاق كافيًا للاستسلام للنوم، والمعدة تشكو بإلحاح لا يستطيع النوم إسكاته، تحاول تجاهل حاجتها للطعام، وكيف يستطيع المرء تجاهل حاجته الطبيعية للعيش، تجيب نفسها لا ضرورة للمقاومة بالأساس فقد بدأت دقات قلبها تخفت ثم تتسارع ليهاجمها إرهاق منهك، مسعور، فوق المرض

عند هذا ضمت ركبتيها لصدرها بألم وانكمشت في فراشها، وقد تلاشى الضوء تمامًا حولها ليحتل الألم والحزن والحسرة محيطها، تسرف بالدموع بوجه واهن مجفل لا يقاوم، تستعد للموت بأي لحظة، تاركة كل شيء تصدع حولها، تحمل هم جسدها إن غادرت روحها ولم يلتفت أحد ليهتم به، سيبقى مكانه دون حراك حتى تيقظ رائحته غياب الناس عنها ليتساءلوا أخيرًا عن فتاة كانت بينهم

بكت لفكرة تلك الرائحة الكريهة التي ستكشف عن وجودها لهم، كم كانت مهووسة بشأن النظافة، كم يهمها أن يكون كل شيء نظيف، رائحته طيبة، مرتب، .... بكت دون صوت يكتم الإرهاق كل قوتها لإظهار الألم، لم يكن المرض شيئًا أمام آلام أخرى هاجمتها بشراسة وبلا رحمة... ألم الجوع.. الوحدة.. الفقد.. الحرمان... الانكسار.. تخشى المذلة، كل ما تخشاه أن يدفعها كل هذا الألم لألم آخر لا تقدر على احتماله... وهنا

عند هذا الحد من الأفكار

انفعلت متشنجة ببكاء حار

.... تتكور في فراشها... تستعيد صورته

غفت إنهاكًا وذابت بلا قوة

_آيات؟

صوت حنون ويد أحن تمسد على شعرها القصير

رائحة دافئة ونفس تحتويها وهو يوقظها حاملًا قطعة كيك شهية هامسًا بابتسامة ساكنة:

_بندورتي الحمراء استيقظي

فتحت عينيها بابتسامة رقيقة مرهقة وقبل أن تستدرك الظلام حولها، وأنه مجرد منام، التفتت حواسها نحو الباب

دقات خافتة على باب الشقة الصغيرة، تمكنت من اصطيادها لقرب الغرفة من الباب، ذابت من أثر منامها وشعت روحها بضوء ملك كيانها للحظة وهي تلفظ من أعماقها بأمل ولهفة:

_بابا؟

قاومت كل ما أسقط جسدها لتتخلى عن فراشها تلحق الطارق بلهفة إثر رؤياه، تأججت روحها وتلاقت بسحر مازال يغمرها وهي تتكئ على كل شيء لتصل لعزيز كانت على قربه، فقط سبع خطوات تفصل سريرها عن باب الشقة.. تتقدم مع كل دقة بأمل، تقترب بعمى غشى عن أي احتمال واقعي فسارت نحو خيال مصحوبة به

فتحت أقفال الباب بارتعاش ولهفة، جرته إليها بقدر لهفتها للطارق، تلقي بنظرها المتلهف كومة واحدة في جعبته، بطلتها المسحورة، وعيناها الولوعة... وابتسامتها المتلهفة .. التي اختفت فجأة

تلاشى كل شيء بلحظة حين استفاقت على غير رؤيته، انهارت

ملامحها، قوة شغفها ووقود الأمل، واعتلى التيه واجهتها لتهمس بكل ارتباك محقون بالظلمة:

_من أنت؟

استند الطبيب ذو الملامح الطفولية العابسة إلى جانب الباب بطلته السوداء بقميص أسود يزين صدره خفاش أقل درجة للون البائس وشورت أسود كما حذاءه الرياضي يتطلع من تحت قبعته الشمسية بتساؤل وهو يقول:

_لا شك أنكِ لا تتذكريني، إن كنت تنسين نفسك بالأساس ، فقد تجاهلت ما طلبته منك قبل ثلاث أيام، أتساءل كيف يمكنك تجاهل شيء يخص حياتك!

سألت بغضب وهي تستند إلى الباب بوهن: كيف عرفت عنواني!

أجابها بصبر: من المعمل للتحاليل القديمة، عندما اتصلت على معمل ألفا وعرفت أنك لم تذهبي لإعادتها، توقعت أن تستغلي توصيتي طالما أنت بحاجة إليها، لكنك تجاهلت كل شيء، لا أعلم أي فراغ بعقلك يدفعك لتجاهل هذا!

همست بتساؤل مرهق: أتيت لأجلي؟!!

قولها كان صادمًا برغم حقيقته إلا أنه أجابها ببساطة، كنت أمر من هنا

عادت تهمس كخبر لنفسها: أتيت لأجلي؟!

تأمل حالها الذي يرثى له وهو يقول بأسف: هل تملكين مرآة؟

بدت تحدث نفسها مجددًا تائهة بصدمة حقيقية دمعت لها عيناها: أتيت إلى هنا لأجلي

وضع كفه على الباب بإشارة لإفساحه وهو يقول :أريد رؤية والديك

هنا تحطمت ملامحها وهمست بدفاع غريب:

_والدي ميت

لم يبالِ وهو يقول سريعًا: آسف، أين والدتك؟

تشبثت بالباب وهي تعيد تضييقه قائلة :لا أعرف، دعني وشأني

تعجب

شعرت بسخونة جفنيها وهي تحبس الدموع هامسة بصوت مبحوح :لا بأس

مد لها هاتفه بنبرة آمرة: سجلي رقمك.

توتر طفيف ممزوج بالتهكم ظهر على وجهها وهي تواجهه بسؤالها: هل أنت معجب بي.

تهكم بابتسامة جانبية قبل أن يقول بتجاهل، وهو يرفع كفه يشير لمحبسه بكفه اليمين: سأرتب موعدًا آخر لعمل التحاليل، كوني على ترقب للهاتف سأتصل بك لتلحقي بي.

شعرت بالدوار يهاجمها بإصرار ولم ترد الدخول في نقاش آخر فقط أرادت العودة لفراشها فلم تجد وسيلة إلا بسحب الهاتف وداست على أرقامه سريعًا ثم مدته له وقالت:

_مع السلامة

وأغلقت الباب... تسمر قليلًا قبل أن يتجاوز تصرفها بتنهيدة، يتطلع للرقم ثم ضغط على

إنشاء جهة اتصال جديدة وفكر قليلًا ثم قرر بكتابة "الوقحة"

وغادر بعد أن ألقى نظرة صامتة على الباب لينسحب بهدوء.

****

ما بين انسحاب الليل وتسلل ضياء النهار، تبادل القمر الشمس دورها في مراقبة تلك التي غابت تمامًا في فراشها، بدت كالميتة، برأس ملتوي وفم نصف مفتوح وعينين لا تكادان تنغلقان، غطاء كشف عن التواء ظهرها وساقها وذراع يرتمي فوق رأسها دون حركة، لا شك سيذعر من سيراها عند اكتشاف موتها

سعلت فجأة

أعادت كل عظامها إلى مكانها وهي تفرد جسدها المتراخي على فراشها، سمعت صوتًا بالخارج، حركة أقدام، ضجيج أكياس تلاه صوت أنثوي متعصب

"أتيت لأخذ باقي أغراضي التي ركنتيها للحائط، لقد جننتي بالكامل، تغلقين على نفسك كالقبر والثلاجة لا يوجد بها حتى نقطه ماء، والصنبور مكسور وال....

انسحبت عائدة لحالتها تحت غطائها عابسة بقهر... ذلك الصوت المزعج المؤلم، تحاول تجاوز صدمتها الأولى حين تركتها وذهبت برفقة آخر، تاركة رسالة من سطرين تبرر فيها اختيارها لحب حياتها والطلاق، ثم تعود بعد شهور ذليلة راكعة ترجو العفو يقتلها الندم، تتلقها ذراعاها الصغيرة وقد طغى الشوق عن الغضب، غضب تحول لكراهية حين غادرت مجددًا دون رسالة لرجل آخر أقل عمرًا، ثم تعود بكل وقاحة لاستغلال الشقة برفقة زوجها، وحين تزداد الأمور سوءًا تفر... بعيدًا تختار هي.... تعود فقط للملمة أثر اسم تعلق بها، تحمل اللوم

والعبوس، ساخطة على كل شيء، تحمل وقاحة دافعها انهزام حال ابنتها وليس صلاح حالها هي....

_قلت إنك ستحصلين على عمل، هل ستظلين نائمة كالجثث بكسل، هل تتوقعين إنجاب ثلاجتك للطعام، كفي عن إثارة الشفقة.

لم تجد إجابة فضربت الحائط وهي تضيف:

"تركت لك باقي طعامي، توقعت أنني لن أجد شيئا عندك لآكله.

ثم أخذت خطواتها السبع للباب بعصبية ثم ضربة عنيفة مغادرة.

استمرت في التمتمة بعصبية وهي تقفز ركضًا عن السلم القديم بسوره المتهالك تقطع خطواتها بنفور تسترق النظر بذعر للأبواب حولها وكأنها تخشى شيئًا حتى فرت خارجًا وأخيرًا تلتقط أنفاسها الغاضبة تشير للسائق المنتظر داخل سيارته بعبوس ولهفة ولكنها تراجعت كالمصعوقة حين فوجئت بذلك الكيس يسقط فوق رأسها كالبرق، أصابها بالصدمة والذعر، تطلعت للأعلى لوجه ابنتها التي رمقتها بنظرة مزرية مستهينة تضج برسالتها عبر نظرتها

لست مثيرة للشفقة

ثم عادت للداخل، تراقبها بعيون مشتعلة وهي تعود للاختباء بين جدران لفظتها كل مرة تعود إليها منهزمة بقلب غير راضي، كم تبغض هذه الجدران، وما دك فيها من طموح بقبضة الرضا من رغبات بقبضة المكتوب، من حياة بخنجر العائلة والزوج والابنة، تبغض عودتها وذكرياتها وعجزها المرتبط بكل جدرانها وما دار فيها، تتمنى لو أحرقتها لتخرس، شاهد فشلها، تحجرت عيناها بمقت وأحنت رأسها بانهزام تواجه رفض ابنتها المزدرى ككل مرة تلتقيان، تتطلع للكيس ببقايا طعامها أرضا فضربته بوجهه قدمها بقهر ورمت نفسها بالسيارة

تشير للسائق بالانطلاق بغضب.

****

"كفى إثارة للشفقة"

هي كالحنظل، مريرة لا تستطيع بلع ريقها من مرارة أثرها بحلقها تكتم دموعها الذائبة بالقهر والعجز، تكومت فعمت رؤياها، تعض أسنانها بمقاومة عجزت فيها عن الصراخ وكلمتها تتكرر برأسها كمطرقة تسقط كل حروفها على قمة رأسها تصيب كل عظامها.. تحطمها، الكلمات تؤلم، فزادها الألم ألمًا... بكت... انفجرت بصوت مسموع.. تنحب بشدة.. تتوسل

بابا!!!!

****

الله اكبر الله اكبر

سمعت صوت الآذان يطرب أذنها فتبسمت تهمس لنفسها بمحبة:

_لا بأس، الله يدعوك للقائه، وسيساعدك، الله يحبك يا آيات، لم يتركك ولن يتركك.

ساندت نفسها برغبة ربانية للمقاومة لتستقيم، تتجاهل بمقاومة حقيقية كل إلحاح جسدها للسقوط، لتقم وتتوضأ وترتدي عباءتها وحجابها وتقف بارتعاش جسد منهك بالكامل أمام ربه

وعند قول الله أكبر

استسلمت للسقوط إليه جالسة بانهيار جسدًا لا قوة له ولا حيلة.. تميل بجسدها لوضع السجود، تسقط رأسها ساجدة وتسلم نفسها لرحمته ببكاء حار محدثة

يا رب، أعني يا إلهي، لا أعرف كيف أرتب حديثي إليك ولكنك تعلم حالي، لا أملك إلا دعائي، لا أملك إلا دعائي يا الله، وحديثي إليك أخشى أن أدعو على روح انت خالقها بالموت والراحة بيديك، وأن ينتهي أجلي في أي لحظة فأعزني ولا تذلني لمخلوق، خذني إليك عزيزة ، كل الخلق قد فروا من حولي، كلهم وهذا يؤلمني وإن تظاهرت بالاكتفاء ، أنا وحيدة يا الله، وحيدة فاكفيني بك وساعدني وأمنحني القوة، داوني يا الله، اجبرني، أشعر بالوحدة والألم يا الله، أتعذب و أشكو إليك حالي، إليك فقط، أستغفرك وأتوب إليك لحزني، ولكنك تعلم حاجتي، انا بشر ضعيف يحتاج ويضعف ويعجز ويمل ويكره ويحب ويتألم، أنا أتألم، يؤلمني كل شيء.. ساعدني برحمتك.. أنا لا أعرف ماذا أقول وعزتك تعلم حالي.. اجبرني يا الله

اختلطت همساتها بالبكاء والذي سرعان ما تحول لشهقات ونحيب طويل قبل أن تستسلم للسقوط وتغيب على سجادتها... ينزعها من سباتها صوت جرس الباب، تتجاهل لتستقر بدوامتها ولكنه يصر...

****

لمَ لم تجيبي؟ لقد اتصلت ست مرات على رقمك اللعين.

زفر بضيق وهو يهاجمها عند انفراج الباب بقوله المنفعل، يتفاجأ بحالها فيتراجع عن انفعاله أمام وجهها المرهق الباكي وقد أدرك من ردائها ما كانت تفعل فتحولت نظرته لهدوء مفاجئ وهو يعيد سؤاله بنبره أخرى أكثر عقلانية:

_لمَ لم تجيبي؟ لقد اتصلت مراراً.

أجابت بصوت باكي:

_لم أسجل الرقم

قال برفق:

_وهل يتطلب الرد التسجيل!

صمتت

فتنهد وهو يخفض نظرته عنها يتحاشى النظر شيء يجبره على توقيرها وهو يقول بإصرار:

_اسمعي، أنا حقا أشفق عليكِ، ولا يمكنني ترك شخصٍ أعلم أنه بخطر، أنت بخطر حقيقي، أمانتي كطبيب تدفعني لمساعدتك، لكنك لا تساعدين نفسك، انظري لحالتكِ التي تؤكد ما تتجاهلينه، لقد حاولت قصارى جهدي لإيجاد أمل لكنك إن لم تعيدي هذه التحاليل علنا نجد خطأ يمنحك الأمل من جديد، فإنها تعني أنكِ تحتضرين يا آيات .

وأحنى رأسه يضيف بتفكير وأهمية:

_أنا أمام خيارين في أمرك، تجاهلك لأنك لا تعنيني، وهذا سبب كافي لي ولغيري، أو مساندتك لأنك مررت أمام عيني وعلمت حاجتك وهذا أيضًا سبب كافٍ لي ولغيري في حقيقته... إذن

فبإمكاني أن اتجاهل وهذا خيار سهل ، ولكن....بالنسبة لي لا يمكنني أن أفعل .

هنا سقطت أمامه فجأة، ليغيب كل شيء حولها مرة واحدة...

****

بدا كل شيء كضباب يحجب رؤيتها لما حولها، حاولت التحرك لكن أحست بوخزة في كفها فتحسستها بالأخرى لتكتشف أنبوبة بلاستيكية أدركت ماهيتها وهي تهمس بتساؤل:

_أين أنا؟

شعرت باقتراب هالة سوداء منها ثم صوت مشوش:

_"أنت بالمشفى، أندهش كيف تركت نفسك دون اللجوء إليها في حالتك هذه!

حاولت الاستيعاب ترفرف بعينيها لاكتشاف محدثها وتلك الهالة السوداء تقرب لتصبح أمامها مباشرة ليعود الصوت قائلًا:

_جسدك ضعيف للغاية، تحتاجين للرعاية.

توقفت عن محاولتها بالضغط على نفسها لاستعادة ما فاتها لتهمس دون وعي:

_"لا يمكنني البقاء بالمشفى"

صوته اقترب أكثر بعصبية: لمَ لا يمكنك؟!

حاولت الشرح لكن محاولتها ذابت بين طيات الحرج، كيف تحدثه عن عدم مقدرتها على اتخاذ خطوة تحتاج للمال، هذا سيفتح له أبوابًا أخرى، ستضطرها للشرح، فكيف تشرح له تفاصيل مُذلة، كيف تخبره بوحدتها، لا يمكن أن تطلع أحدًا على صفحات ضعفها، ألمها وعجزها ، تطلع أحدًا عن ما دار خلف جدران تشهد كل انهزاماتها، ولكنها تسترها، هي تسترها، تختبئ فيها من العالم وصفعاته إليها، تفاصيل لا يمكن أن تحكى ولا تريد أن تفعل لتقنعه.. لتشرح له همست:

_هذا شأني، دعني أذهب.

وعادت تحاول التركيز والتحرك من استلقائها فأرهقت من مجرد المحاولة تتطلع إليه بحرج وإرهاق تخشى السقوط أمامه وكأنها لم تفعلها سابقًا، تنكر إحساسها بالأمان عندما أتى فاستسلمت للانهيار، لتضيف بفشل:

_بعد قليل.

تركها لتحاول، تصل إليه صورة خجلها حتى من استلقائها أمامه وهي تتأكد من غطائها يغطيها ولملمة ساقيها حتى لا يظهر منها شيء، مدركًا استسلامها في النهاية ليقول بهدوء وهو يمنحها نظرات متفهمة:

_لقد سألت جيران الحي عنك، لأصل لشقتك في المرتين، أعلم ما تخشينه، حتى أن الشقة هي إيجار قديم يقاتل مالكها للصبر عليك.. أنت يتيمة فقيرة عاطلة ومريضة، لا تقاتلين لأجل أي شيء، بائسة يائسة... كل شيء سيتلاشى بمجرد موتك.. هل هذا يريحك الآن!

شعرت وكأنه أصاب رأسها بسهم اخترق قمته فأغمضت عينيها بقوة لتسيل دموعها جانبًا ثم سرعان ما انفرجت عند قوله:

_ولكني هنا لأجلك.

استعادت هنا صورته أمام عينيها الدامعتين ليضيف:

_فقط لا يمكنني تركك، ضميري المهني والإنساني يحتماني الوجود.

ضحكت بوهن فعقد جبهته ليضيف مقتربًا منها مازحًا:

_هل ستموتين الآن وتلك ابتسامة النهاية! .

همست تجاري سخريته بلطف:

_أعمالي ليست رائعة إلى هذا الحد

مط شفتيه وقال:

_لا بأس، الله رحيم.

تأملته تتذكر رجاءها لتهمس أخيرًا بيقين:

_أرى.

أحب أنها استسلمت وجارته بالحديث ولكنه فشل أن يخفي الأسى بينما يقول:

_" النتائج نفسها."

عادت تبتسم هذه المرة رغمًا، تفقد قدرتها على التظاهر وإن بدا كل شيء واضحًا لتقول:

_"في كل الأحوال سنموت."

قال بنبرة أسف أسرف في كبته: تفاجأت...و لكني سأحقق الكثير قبل موتي، هل كانت لديك خطة لحياتك.

أجابت بتفهم:

_الحصول على الوظيفة.

سألها" وبعد ذلك؟

_سأسدد إيجار الشقة.

_وبعد ذلك؟

_كنت سأصلح الصنبور.

_وبعد ذلك؟

كنت سأحضر الفاكهة.

_وبعد ذلك؟

سأشتري فستانا وحذاء

_وبعد ذلك؟

صمتت تبحث عن "بعد" ولكنها تحايلت تتهرب من الجواب قائلة بنفور:

_اذهب لعيادتك، لمَ تلحق بي؟.

أدرك تحايلها فمال بجذعه قائلًا : تتذاكين؟

قالت بصدق:

_بل مرهقة

هتف: لا لا، لا يمكنك أن تقضي آخر حياتك بهذا الشكل.

تراجعت بدهشة ثم قالت بنفس النظرة

_" أنت وقح..

واحتارت بوصفه وهي تبحث عن قول دقيق فمط شفتيه بتساؤل :لمَ؟!

قالت مباشرة :هذا مؤلم

أشار لها وقال : بائس يائس مؤلم.. حالك.

هتفت: اخرج.. اذهب لعملك

شد قامته وهو يقول محذرًا

_حسنا، لا تغادري المشفى، أخبرتهم بالخارج أنك مصابة بفيروس، قد ينتشر بالمدينة من خلالك، ستتعقبك الشرطة إن حاولت.

هتفت "ما هذا الجنون؟!

قال وهو يهم بالمغادرة" سأعود بعد ساعتين، لا تنامي.

ووقف يضيف بجدية:

_فكري لآخر مرة في ما ترغبينه

أجابت بهدوء تحسم الجدال:

_أريد النوم فقط.. غادر

****

قبل ساعتين

راقبت حركة الممرضات حولها رعاية قد تكلفها الكثير، فكرة لم تجعلها تسترخي بفراشها وهي تترقب مقابل وجودها وهذا ما لن تقدر على تصوره، تتساءل داخلها أي حماقة تدفع خاطرها بالاعتماد على شخص غريب بإمكانه الفرار بأي لحظة.. توقف تفكيرها عند نقطة الفرار، ولم تعرف لمَ تراءت لها صورة أمها حين ضربت الباب وغادرت بعد ترك لقيمات، هي تفعل ذلك دومًا؛ تصر على إثبات حجتها، ما من شيء يستحق التمسك، البقاء ، تترك كل شيء وليد تخاذلها، بوجه لا يستطيع المواجهة، تتشابك داخلها ألف عقدة عند نظرة ابنتها باليأس، ابنتها التي تركتها للاشيء من أجل رجل، رجل هو أقرب لمكر الشيطان، فلا تستطيع الاعتراف بخيبتها، تفر

غامت عيناها عند هذه النقطة وقد تلاقت الحقيقة بين طيات الألم هي تشبهها لا شك جينات تتشكل فتخلق هاربة أخرى، مهما اختلفت الدوافع والتهديد، تترك كل شيء لتبتعد عن نظرة الخزي والخذل تخشى الاعتراف والفشل.. هي الجزء السيء وإن بات صحيحًا

كرهت نفسها عند حد هذه الفكرة... ولكن لم تكن قوية بقدر طبع دفعها دون تفكير لسحب فراشها عنها...

ظل يتطلع للكيس الورقي بيده بابتسامة يملأها الشغف وهو يتجاوز المارة لداخل المشفى العظيم وصعد عبر المصعد الكهربي وهو

يحتفظ بابتسامته، ابتسامة طفل يحمل شغفه بيديه فيتطلع إليه تارة وتارة أخرى يذوب في تأثيرها عليه، طفل لا يستطع أن يكف عن الابتسام ولهفته تسبق خطواته تجاه تلك الغرفة ١٠١، توقف أمامها يحاول استعادة جديته لكنه فشل بابتسامة واسعة، يبهج قلبه فكرة إسعاد قلب آخر، يسرق من بهجة أثرها على قلب صاحبها لنفسه، تلك مشاعر الخير، أن تفعل الخير وتسر أن تخطو إليه، في كل خطوة بهجة، أن تترك لروحك متعة العطاء...

طرق الباب

لم تجب.

اقتحم الحجرة وفي قلبه خبر خشى سرعته، فأسرع داخلها يتجاوز أثر الخبر على نفسه يبحث بعينين وقعها على لا شيء .... طل من عينيه قلق حين لم يجدها.... انقبضت كفه على شريط الكيس بيده بضيق..

****

تختلف المتعة ولم يكن إحداها أن تتخلى عن الراحة لجسدك لأنك ترغب بالارتياح لعقلك.. هذا الارتياح المأسور بالحسرة، ألا تستطيع أن تقدم لأجل راحتك فتتنحى بعيدًا لراحة أخرى هي في حقيقتها ضعف.. آتياً يمازحك بالنهاية وكم تكره الضعف

عادت للظلام تختبئ.. خلف سواده بكل أفكارها التي اتفقت مع صحتها بائسة يائسة

لتهمس بحزن: غبية.

وبدأ جسدها يدخل في اللاوعي، هذا كل ما تستطيع تقديمه لجسدها المريض، راحته دون تفكير، لكنها لم تنجح، تمنت في لحظة غفوتها تتداخل كلمات الطبيب بشأن رغباتها.. أن يصبح هناك شيء.. أي شيء... لتحيا

من المخذل أن تجهل كيف تحيا.. تترقب الموت بينما أنت مجرد فرد في قائمته الطويلة

غابت يتراءى لها صوت أبيها قادما من بعيد، ينادي باسمها ثم يضحك ويزيدها الدلال بقوله بندورتي الحمراء... دميتي الصغيرة.. آيات قلبي

و فجأة صرخ بقوة غاضبًا: آيات!

انتفضت وفتحت عينيها بغتة تحدق بفزع تتساءل بارتياع وقبل أن تستدرك شعرت بنفس قريب يقتحم فراشها بصوت غليظ:

_آياتي

شهقت بالظلام تقاوم شبحًا أقوى منها بدنيًا وهو يكتم أنفاسها بكفه الخشن يهمس بولع:

_قالت لي أمك التعيسة العجوز أنك ألقيت الطعام على رأسها، أنت بغرورك هذا تغريني، نفورك منها يعجبني، ما زلتِ غاضبة منذ تزوجتني، أنت تكرهينها لأنها اختارتني وتركتك تحترقين، بينما كنت أريدك أنت يا آياتي، أنت وفقط

قاومت برغم تراخيها وهو يزيد عليها...

أردتك أنتِ بشدّة، ورفضتني، وتزوجتها لأجل أن أبقى قربك، تزوجت عجوزاً تكبرني بخمسة عشرة عامًا لأجلك فقط، ولكنك قاومتني حتى طردتنا من شقة أبيك القميئة بإثارة شكوكها أيتها الغبية اللذيذة القطنية..

قهر يتأجج داخلها أكثر، لم تعد تشعر بثقله فقد فاق كل ألمها الداخلي ألمٍ آخر، واحتجزها العجز فأرخى عزيمتها، لم تقدر على مقاومته هذه المرة وبدلًا من أن تقاومه استباحت له قتلها وهي تلفظ بنبرة احترقت فثار رمادها:

_اقتلني أولًا

سرت بجسده قشعريرة باردة أمام دهشته لاستسلامها لم تكن أبدًا كما اعتادها شرسة عنيفة حازمة حادة مجنونة، تلف نفسها برداء التقوى فتتحاشى ما يلوثها، رفع حاجبيه الكثيفتين بالظلام بتساؤل مبطن بالدهشة وبنبرة سخرية نطق:

_هل تحاولين إثارة شفقتي يا آيات ؟ أنتِ لم تفعليها قبلا!

وقبض على وجهها الباهت الذي فقد بريقه وتورده ليقول بتحدي:

_لن تخدعيني

وضاقت عينان ليضيف بشك:

_أم سلمتِ نفسك لآخر فلم تعد الأمور ذات أهمية؟!

بدت حقًا لا تستطيع مجاراته وقد تراخت بين ذراعيه تماماً يقترب من وجهها، أنفاسها ضعيفة وجهها منهك مصفر برغم الضوء الخافت التقط معالم إرهاقها، لا يصدق أن آيات العنيدة التقية مستسلمة بين يديه، تلك التي فعل كل شيء بجنون ليقترب إليها هي بين يديه، لا تقاوم لا تصرخ ليس بينهما شيئًا ليمنعه عنها وهم بها مقتربًا بكل لهفة

آاااه

ضربة عنيفة تجر صرخة انتزعتها من سباتها يلحقها صوت غاضب:

_لا تقترب من جثة مريضتي!

كل شيء ذاب وتداخل وأصوات تعلو وتهبط حتى انطفأ كل شيء، كل شيء بعينيها تمامًا

****

شد قبضته بقسوة وعيناه البنيتين تلمعان بغضب دفين، أسبابه تلك التي كانت على وشك الموت مرتين، يدفعها شعور غبي تخشى فيه الحاجة لظلام يتسلل إليها فيه الضباع وما شابه، ترقد أمامه مسكينة مطمئنة نائمة كمن لم يدرك فظاعة ما تعرض له، يلتبسها إحساس هو يدفعه للغضب، تتناقل ما بين الموت للموت باستسلام هو رغم أنفها، يدرك عجزها، ولكنه غاضب، غاضب بقدر لا يستطيع وصفه غضب رجل تجاه فتاه لا قوة لها ولا حيلة، غضب طبيب لا يستطيع فعل شيء، شعر بالعجز أمامها، شعور يقتله فيلوم كل شيء حتى هي، تحرقه رغبة في ضربها لتستفيق لمواجهة جرمها حيث هربت.. سمحت

هتف متعمدًا لإيقاظها:

_أنتِ لا يمكنك أن تقضي الباقي من حياتك مستسلمة هكذا تنتظرين الموت!

تأففت وقد اكتفت بالتظاهر بالنوم أمامه لتقول وهي تعتدل جالسة بعباءتها القطنية الواسعة تعيد ترتيب حجابها أعلى رأسها: هل بإمكانك أن تصمت.؟

اتسعت عيناه بصدمة وهو يقول بحدة:

_أنتِ وقحة، لقد أنقذ حياتك للتو.

قلبت شفتيها بتهكم لتقول بيأس:

_أي حياة؟!

أسقطت الكلمة على رأسه فحاول بلعها بضيق وهو يسألها بعصبية: لمَ غادرت المشفى بالأساس!

أجابت وهي تشيح بوجهها بعيدًا: أريد البقاء في بيتي.

جلس أمامها ليضيق بعينيه البنيتين قائلًا بتحقيق: هربت من الدفع للمشفى

ارتعشت عيناها بتوتر□ لكنه أضاف: لكنك غبية مستسلمة، بائسة يائسة، كئيبة، لا تشاهد التلفزيون

تطلعت له بعصبية فأضاف :المشفى مجانًا يا غبية

عضت شفتيها منتبهة وشردت بعيدًا باكتشاف لكنها سريعًا قالت:

_وماذا عنك؟ ترعاني مجانًا!

تراجع بمقعده وهو يتنهد قائلًا: أخيراً اعترفتِ، أنني أرعاك يا ناكرة المعروف.

قالت:

_حسنا عد لعملك الفلكي ودعني أموت بسلام.

تلاعب بملامحه بشكل محبب كما يفعل فيدهشها! تسرح في انفعاله، بساطته، مرحه، تغافله، تسامحه، وسامته، ليقول وهو يضع ساقًا على الأخرى:

_لو أعلم أنك ستموتين بسلام لتركتك، لكن فتاة بائسة تصحب المشاكل.. ثم أنني أقوم بعملي

سألته، أي عمل!

أجاب ببساطة:

_أتابع لحظاتك الأخيرة، هذه دراسة على فكرة

أدركت تلاعبه وهي تتطلع له بشرود، تسرح فيه بهالة تضمهما، هالة هي بالفعل خارج الواقع أو هي ضَرْبٌ من الخيال... لا تدري ولكنه.... ، لفت نظرها لون ملابسه الأسود الدائم، كم يبدو مميزًا، فريدًا، إنسانيًا، لا يشبه البشر، وتهكمت من فكرة الملاك برأسها وقارنت بين ما يرتديه وبين فكرتها الطفولية ووقعت بين فكي فكرة.. هل حقًا تراه ملاكًا؟!

ولكنها تأففت وهي تقول باضطراب:

_اصمت وغادر لحياتك وابتعد، لا أريد أن أتشبث بأي شيء يعذبني في لحظاتي الأخيرة

تساءل :ماذا تعنين؟

لم تجبه فمال يواجه نظرتها قائلًا: غبية!

همست بين بقايا أثر فكرتها : أعلم.

ثم تطلعت له وكأنها اكتشفت أمرًا لتسأله بأهمية:

_كيف تمكنت من دخول الشقة!

قال بتحقيق: بل كيف تمكن هو من دخولها أولًا؟!

أجابت ببساطة: هو زوج أمي وهي لديها نسخة، لكن ماذا عنك؟

هتف بتساؤل ودهشة: زوج أمك! لكنه شاب، يبدو نفس عمري تقريبًا!

وفكر قليلاً بملامح تهديها شفقة فأسرعت تسأله: لا تنظر لي هكذا، وأخبرني كيف تمكنت من دخول شقتي؟

تجاوز عن إحساسه بالضيق وهز رأسه وقال باستعلاء :بل هي شقتي يا غبية.

صاحت رغمًا عن إرهاقها :ماذا؟

أجاب بلامبالاة: أحسست أنك ستعودين للاختباء هناك، والحقيقة همني أن أستطيع دفنك إن سقطت ولم تجدي أحدًا يفتح الباب فقمت بالدفع له وأخذتها

همست بوعيد: ذلك الضال قال لي أنه لن يفعل أبدًا

هتف ببراءة مبطنة بالخبث: رأى النقود وسلمني المفتاح في دقيقة.

تمتمت: حقير.

قال موافقًا: بلى هو كذلك.

صاحت بصوت مبحوح غاضب :بل أنت... كيف تقوم بتأجير شقتي بينما ما زلت أسكن فيها!

أسدل أهدابه وهو يقول بغيظ: هل يمكنك إعادة شريط ما سبق حتى تستطيعي أخذ رد فعل عقلاني!.. كنتِ بين ذراعي رجل مخبول يتحدث عن الفوز بك بينما أنتِ جثة مستسلمة تمامً.

عضت طرف شفتها السفلي تجيب بحرج وقد اختض وجهها بالخجل: لم أكن بوعيي.

شعرت بمزيد من الحرج وهو يحرك نافيًا بذراعيه بحركات مسرحية مستفزة يفرض توقعه: بل عقلك كان مستسلمًا، أنت أردت الإحساس بهذا الشعور، طالما انتهت حسابات الدنيا لديك..

وهبط يضيف باستجواب محقون بالشك: هل تحبينه!؟

قاومت رغبتها في ضربه وهي تعبس بوجهه هامسة بضعف: اخرس

قال بمزيد من الاستفزاز يضع المزيد من التكهنات بتعابير تشع استمتاعا: هذا منطقي عن قصة زوج أمك.. إلا لو كانت أمك امرأة فاتنة لم تبلغ الثلاثين

لوت شفتيها بضيق فأردف بإصرار مفكرًا وهو يحيطها بعينيه، بدت له رقيقة بسيطة، متواضعة، هيئة طفلة أنهكتها الحياة فألبستها لباسًا يكبرها، تحتمي منها بعباءة واسعة غريبة تخبئ خلفها أنوثة لا تملك أمان حرية إظهارها وحجاب تتستر فيه من الوحشة والتهديد، الذي يلفها، هي خائفة، لا تشعر بالأمان قط، تخشى أنوثتها تخشى كل ما يمكن أن يلفت الأنظار إليها، تحتبس خلف خوفها، فتلف نفسها بالأغطية.... خيرًا أن تفعل من أن لا تفعل. في عالم كهذا .. ليقول بتفكير:

_مستحيل فأنت تخطيت الخامسة والعشرين.. هل كنتم على علاقة واستولت عليه أمك، هذا منطقي أيضًا، وأتى يستعيد حبه المهدور

صرخت به على نحو فاجأه وهي تستقيم من ارتخاء جلستها بتأهب وعصبية:

_أنت أحمق كبير، ابتعد عني الآن، اذهب لمرضاك وحياتك وزوجتك لم أعد أتحمل وجودك بعد الآن لم أعد أتحمل تدخلك وغرابتك وجنونك، لقد ضاقت نفسي منك..

هب نحوها وتسمر لحظات مكانه لم تستطع ترجمة مشاعره قبل أن يرفع كفه بانفعال في الهواء فحدقت بتخوف، تترقب كفه يضج بقلبها الحذر، تجحظ لهبوطها حتى أوقفه أمام عينيها قائلا بخفة:

_"غبية تقصدين خطيبتي وليست زوجتي.. انظري للمحبس في إصبع كفي اليمين، هل أصابك العمى؟

رمشت بعينيها تستوعب قوله حتى هتف بتحدٍ رهيب:

_"لا وقت لدي لعرض شخصك الفاضل أعرف جيدًا ما سأفعل بحياتي، لدي عمر طويل لأخطط وأنفذ، اهتمي بشأنك"

قالت بغيظ تعض على أسنانها: وكيف تعلم! يمكن أن تسقط الآن صريعًا أمام عيني بسكتة قلبية مثلًا أو تسقط من الدرج وأنت ذاهب لبيتك أو ماس كهربائي يتسبب باحتراق المصعد فتحترق داخله أو سيارة تأتي و

مال بجذعه أمام وجهها يهمس بتحدي: احتمالات.. ولكن موتك مؤكد

همست بقهر صرخت له عيناها: لا تعبث بهذا

أردف بنفس ميلته وإصراره لعينيها: أنا أريد مساعدتك

أحنت رأسها تتهرب من نظراته لتسقط معها دمعة تكومت وهي تهدر: أخبرتك دعني وشأني

اقترب أكثر بحيث بدا كأنه يوسوس لها بصوت قوي:

_ بعد أيام أو أسابيع ستسقطين وستغادر روحك جسدك وسيبقي جسدك كالخرقة البالية وستلقين بحفرة وبعد ساعات سيبدأ جسدك بالتعفن والانتفاخ وينفجر ليأكله الدود بشراهة ثم بعد أن ينتهي ببضع عظام، سيقتحم ظل رجل تعيس يركن عظامك جانبا كفروع الشجر وهو يتلو آيات مناجيات وداخله يتأجج من الازدراء.

حاولت إخفاء دموعها ولكن صوتها الباكي كشف عن قهرها وهي تهدر: _اخرس.

تسمر لحظات بدا فيها أنه لم يكتفِ يتابع نحيبها المتواصل وقد استسلمت للبكاء، أراد أن يفعل أي شيء، أي شيء، ليزيح ستار استسلامها خلف غضب، قهر، قوه ينتزعها منها بمواجهة قاسية منه أوجعت قلبه لكن لم يرد أن يفقد الخيط وإن كان يؤلمها وهو يردف: لم نخلق لنملأ الأرض يأسًا ونحيبًا لم نخلق للاستسلام والاختباء، كلنا نعاني كلنا نُختبر، كلنا سنموت، تلك هي الدنيا، دار شقاء، هي ساعة، هي حياتك لو تدركين، غبية لو ظننت أن الله يعاملك كعرائس الماريونيت، فتستسلمين، خائرة القوى، غبية، تحيي كضحية، ستكونين غبية حقًا، الله لا يحب هذا الضعف، لا يحب التخاذل، لا يحب أن تهدري في منحته، حياتك من الله منحة لا محنة يا فتاة، هو يمنحك الخيارات، يمنحك الحياة فكل مرة يهب إليك طريقًا، ولكن حقًا أنت لا تستحقين الحياة

لفحته بنظرة شرسة تقفز فيها الغضب والقهر تكتم ارتعاشة شفتيها بانفعال وهي تدهسهما بأسنانها تخشى أن تفقد ثبات نظرتها فخانتها دموعها حين تسللت

رغمًا بحرقة مظلمة تسيل بانهزام بخط واحد على وجنتيها لتدفع أخرى لأخرى تودع ذقنها المنكمش بانفعال...

بدت تصارع بنظرتها له، كم كره تلك الهالة التي تتسلح بها، هالة تحتجز خلفها لا تستطيع الخروج، سلحتها بالوحدة والعجز والخوف لتخبئ هناك تخشى أن تظهر من طبيعتها شيئًا، الخوف.. إنه الخوف الذي جعلها تبني قلاعًا من الصمود الزائف.. القوة والشجاعة هالتها. والتحمل،، حتى في مواجهة الموت.. تواجهه من خلف هالتها .. فليس من الجائز أن تنتظر الموت وأنت حبيس الخوف

ترققت نظرته بالرغم منه ليهمس:

_"فقط تخلي عن خوفك لما تبقى لكِ من حياة.. أنت بأمان الموت.. لم تعد الحياة تخيفك بعد.. فتشي عن سعادة سرقها منك حرج الحياة وعراقيل تفاصيلها.. وضيق احتمالاتها.. ودعي الخوف اليوم

وأشار نحو لا شيء بحدة وهو يردف بإصرار:

_" أنتِ هنا وصلت لذلك الباب الآمن، لن يؤذيك أحد بعد ذلك، تخلصي من فكرة عاقبة(غد)، قيود (أمس)، ركام (وبعد) إنها حرية أن لا تفكري بالنتائج.

لن تبقي لها هناك، لن تلحقك، ستضرب الفراغ غضبًا بتلاشيك، فلتحيي فحسب فإن لك مهربًا أكيدًا، له موعد، لن تسألي نفسك أين سأختفي إن أخطأت.. أو فعلت.. أنت بأمان الغيب.

رقت نظرتها، انتفض قلبه يلمس زلزلة ذلك الحاجز حول روحها فأضاف بحماس كي لا يفقد سيطرته:

_"عندما ذهبت للمؤجر قال إنه يخشى إحراجك لأنك تقاتلين للحفاظ على صورتك كما هي عزيزة بعد وفاة والدك، وإن ملكت قرشًا فتسعين إليهم لا لنفسك فيه، لذلك يتساءل كيف تأكلين وأنت بلا عمل وتسعين جادة بل و ترفضين أخذ أي شيء من البقال بالدين، يرى من حرجك آية ... يقول لاسمك معنى فيكِ، هو لم يؤجر لي الشقة، فقط أخبرته أني قريبك واقتنع بالسداد، يجيب شكوكه بنبرة تحقيق، من سيدفع لأجل غريبة !؟ ليقتنع بذكاء لا متناهي.. بلى كان تهور مني أمر الدفع، لكن لا بأس، الرجل كان متفاني بتعامله ، لذا هبطت سعادته بالسداد على مناطق وعيه فأعطاني نسخة من مفتاحها الفخم

ضحكت برغم بكائها فاندهش بسعادة ثم ارتاحت ملامحه وهو يجلس بطرف فراشها يضيف بلطف عميق: أنتِ تخشين المذلة.

أحست بالراحة من تفهمه فتنهدت بإماءة من رأسها تزينها بقول دافئ: بابا كان يدعوني ملكة لا يمكنني خذله.

رفع أحد حاجبيه ليردد ساخرًا: ملكة!

لكنها لم تبالي بمحاولته وهي تضيف بحنين تجاه ذكرى أنارت بصوتها وهي تقول :

_كان يناديني ملكتي، صغيرتي، بندورتي الحمراء، آياتي.... كان يخبرني

وفردت كفها رأسيا أمام عينيه ثم اعتلت الأخرى فوق رأسه لتضيف: إنني هنا

رفع عينيه بمحاذاة حد كفها وهو يتمتم: الأعلى.!

ضمت كفيها لبعضهما ببريق ذكرى دافئة وهي تردف: كان يقول أن الإنسان يستطيع أن يحيا دون شيء مع من حوله، إلا حين يفقد كرامته، فإنه لا يستطيع مواجهة أحد حتى نفسه.

تمتم :رحمه الله.

ارتسمت ابتسامة ساكنة على محياها قيدته عن قول أي شيء يكتفي بتأملها حتى هزت رأسها تعود لواقع كان يجلسا فيه على قرب تنظر لعينيه بتأني هامسة بصدق:

_كان يحتويني وعندما غادر تعريت.

أردف عنها:

_فسترتِ نفسك بالخوف والحذر والاختباء.

همست: لم يكن هناك خيار.

أماء موافقًا بتفهم: بلي أعلم

فكر قليلًا ثم قال باهتمام: لم يكن هناك شخص بحياتك... حب.. هكذا

قالت ببساطة : كان هناك ، ولكن لم يكن بحياتي.

هم بقول شيء ما ولكنه استدرك قائلًا بتفاجؤ:

_يا إلهي، لا تقولي لي خفتي كذلك، لا شك أن قانونك العبقري بشأن المذلة قيد مشاعرك.

قالت قولًا واحدًا "لا يمكنني تحمل الرفض.

رفع أحد حاجبيه وهو يقول بدهشة:

_لا أفهم، هل يعني ذلك أنك لم تخبريه بالأساس. توقعك للرفض هو... يا إلهي..

قالت بهدوء" كان سيفعل، لست فاتنة ولا أملك مركزًا اجتماعيًا راقيًا، أو شهادة ترفعني لتلك الطبقات... أنا مجرد فتاة... تحاول

هتف بتعقل "كونك أنتِ، كونك تحاولي. كونك تفكري بكل هذا.. كونك فقط ترغبين بالحب.. هذا كافي."

هتفت بقناعة" لا، ليس كافيًا... أخبرني عن خطيبتك.

فهم ما ترمي إليه

فتنهد يحاول تجاوز ما وصل إليه وهو يهمس" أنتِ أكثر من يحتاج للرفقة.

تطلعت لعينيه من بين نظرات تهربت منها كعادتها نوعًا من الخجل والحرج أو عدم الثقة لتقول بثبات

" لا يمكنني أن أكون بتلك الأنانية، أنا لا أملك شيئًا لأقدمه لشخص يتمنى الأفضل.

قال موافقًا "الجميع يتمنى الأفضل.

قالت بأسف يعتليه نضوج تسلل عبر كلماتها "أحببت وتركت طبيعتي تتحدث بحرية، تتحدث لي وليس لشخص آخر، لي أنا، أدرك أن ما من أحد سيقبل هذا سواي دون حرج أو اختزال واقتناص، دون رفض، عبر ورقات أخط بها شجن ومحبه تخنق صدري وإن أردت النطق سردت لربي كل التفاصيل مرارًا نفس التفاصيل، سيقبلني، سيقبل ارتفاع صوتي وضعفي، ولكن لا يمكنني أن أقف على أعتاب قلب لا يرغبني، قلب لا أدري ما يؤول له عقله، العقول لها تعقيد آخرى، وأنا أريد أن أُرغب بالقلب والعقل، إن كان لي شيئًا، فسيخطو إليّ مجرورًا من كليهما.. كان سيفعل..

همس بأسى : ولمَ يفعل؟

رددت بأسف: لم يفعل.

تعاطف هامسًا "لكنك تحتاجين هذا الوجود اليوم.

قالت رافضة بحزم " هذا مثير للشفقة"

زفر بضيق ثم قال: لكنكِ لم تحاولي بالأساس .

دافعت: ولو حاولت، سينتهي الأمر بألم.. وأنا لن أتحمل هذا.

سألها "هل قرأتِ كتاب the secret السر ل...؟

صمتت فأردف : لا أظنكِ قارئة بعقلك المحدود هذا.. ضاع منك الكثير، كان بإمكانك ملء عقلك بشيء مفيد ربما كان الورم سيعجز عن إيجاد مكان.. ولكنه وجد فراغًا فتمطع.

تأففت "هذا سخيف.

قال بأهمية "فليكن هذا الكتاب يتحدث عن الأمنيات التي تتحقق بالتفكير فيها، الكون يسمع فيردد.

تهكمت بضحكة خافتة فأضاف : وأنتِ الدليل، حياتك هي تردد للحزن والأسى والخوف من الرفض وها هي الحياة ترفضك بأكملها.

قالت بجمود "لا تأخذ حياتي حلبة لأفكارك الجهنمية.

تجاهل قولها ليقول" ما رأيك لو تعترفين له.

تساءلت "لمن؟

أجاب سريعاً" لحبك.. فقط قولي له أنا أحبك وليحدث ما يحدث فقط استمتعي بما تبقى لك من حياة بجانب من تحبين.

فكرت قليلًا تهز رأسها بالنفي لتقول أخيرًا هذا سيء جدًا.. إن وافق سأتعذب أنني لن أحيا، وإن رفض سأقتل نفسي.

هتف بتشجيع "لمَ تفكرين بغد ولا تملكينه؟! فكري بيومك فقط، قولي لنفسك سأحيا اليوم، وإن جاء غد قولي سأحيا اليوم، و إن جاء بعد غد وجاء الموت تفاجئي.

ضحكت بالرغم من سوء ما يحدث فأضاف بإصرار: فقط قرري وسأساعدك.

تلاشت ابتسامتها وهي تسأله" كيف؟

تلهف وهو يجيب "سأقربك إليه.

مالت لظهر سريرها تستند إليه قبل أن تتطلع لعينيه قائلة بحزن:

_"ستثير شفقته ليحبني باقي ما تبقى لي من حياة..

تطلع لها بصمت فأضافت: الحب حرية تحتاج للمعرفة، للاكتشاف، لتفاصيل تتشابك تنسج ألفة، سلام، ود، شغف، حماس، رغبة، تنظر إلى مرآة تعكس روحك المثالية، تتلاقى الأرواح على منصة واحدة يعتلي فيها صوت القلب ليقررا بالنهاية أن هذا حب، وأنا لا أملك الوقت الكافي لذلك

قال بصدق "فقط أخبريني عن حبك.

تطلعت له طويلاً بحيرة ثم همست: لا أعرف حقًا.

_ماذا؟!

قالت بحيرة: مر على قلبي أشياء، ولكن لا يمكنني الحسم أيهما الحب، أم كان إعجابًا.. أعني لقد كانوا

_كانوا!

_بلى، هم

رفعت كفها بوجهه على حرج فهمس بسخرية: هل سأحسدك!

لم تجب ولكنه استدرك ليشهق بدهشة حقيقية هاتفًا :أحببت خمسةً !!!

وضحك مستطردًا وأنا كنت أشفق عليك! هذا قلب أم خلية نحل.؟!

قالت بصوت هادئ حزين: لا أسميه حبًا، أشياء مرت، التفت لها القلب أو هي الحاجة، كل ما أعلمه أن الرغبات تموت، ويأتي غيرها مع الوقت، لتموت الأخرى، و في كل مرة تموت رغبة منك، تيأس، إلى أن تتحول لشخص غبي.

قال: لهذا أنت تهمسين لنفسك بالغبية

أجابت : لأنني كذلك.

هتف: اسمعي، ليس كل ما يؤلم القلب حب، ولكن قد يكون إن سمحنا لقلوبنا أن تفهم، تكتشف، تداوي، أنا سأساعدك، فليكن، لديك خمس ستختارين منهم، الآن لا يمكنك الخوف من الرفض، لديك خمس فرص.

هتفت "تمهل، لا يأخذك الحماس، وإلحاح نفسك الخبرة لمساعدتي، قد تؤذيني دون أن تشعر، أنا لا أعرف أي منهم هو الحب الحقيقي الذي أحتاجه، أنا حتى لا أذكر من الأمر شيئًا، إلا القليل، ولا أظنه يستحق المبالغة، أخبرتك قد تكون مجرد حاجة

قال بإصرار" هذا ما سيكتشفه قلبك، اسمحي له، حدثيني عنهم وسأفعل ما بوسعي، لنكتشف، ونحقق الرغبة.. ها هي الفرصة لا تقتليها الآن. وإن ماتت، فلتمت معك إذن.. لا قبلك.

خفتت نظرتها بتيه تفكير عميق ما بين الخوف والرغبة حتى التقت وجهه المتلهف لتسأله أخيرًا باستنجاد، هل أنت واثق فيما تقوله؟

اتسعت ابتسامته وهو يؤكد

" كل الثقة."

****

في شقة أم آيات

التف الشاش الأبيض حول رأسه دون إحكام كلفة الجزار لفخذ العجل بعيد الأضحى وهو يتوجع بفراشه يشكو تلك المتربصة أمامه

" كنت ذاهبًا لإصلاح الصنبور التالف كما ذكرتِ، ضميري دفعني لمساعدة تلك التعيسة، وفوجئت بشاب هناك، لم أتحمل مشهدهما معًا، وضربته فرد لي الضربة وهربا معًا.. تلك الفاجرة، لم تجد راعٍ ولا أدب."

قالت بوجه حائر: ولكنها بدت مريضة آخر مرة رأيتها

"هدر بجنون: هل تكذبينني، اذهبي وتحري الأمر لن تجديها، لقد كانا في وضع.... أستغفر الله العظيم وأتوب إليه... عليكِ بسحبها وإعادتها تحت أعيننا، لا يمكنك الانصياع لرغبتها إنها تعبث يا امرأة ويريحها البعد، لتلهو دون رقابة.."

واشتدت ثورته وهو يضيف: اسمعي فأنا لن أتحمل نظرات الناس، أقسم إن لم تأتِ بها تحت أنظاري لأطلقك وأذهب لامرأة لا يلحقها الخزي.. قليلة الشرف.

اشتعلت عيناها تنذر بالشر والوعيد.. وهو يراقبها بنفس العيون المتوعدة

***** **

تأففت في فراشها تتطلع للاشيء أمامها بينما يجري الطبيب اتصالاً هاتفيًا طالت مدته وهي تتمتم بملل:

_هل أصبحت الغرفة سنترال؟!

كان قد انتهى من مكالمته وهو يتطلع لها قائلًا:

_بلاها هذه النظرة، كان عليّ إنهاء بعض الأعمال.

هتفت:

_ولمَ لا تذهب لإدارة أعمالك بدلًا من الالتفاف حولي؟!

قال بدهشة:

_أتعجب حقًا منكِ.. أنتِ عجيبة، لو لم تجيدين إخفاء ذلك فلا شك أنك عجيبة.

قالت بنفاذ صبر:

_ما العجيب؟

أجابها بثقة:

_أي مخلوقة على الأرض ستتلهف وجودي، فقط طلتي

همست:

_صدقني أنت تسبب لي الصداع.

قال:

_اصمتي الصداع بسبب مرضك وليس بسببي.

قالت بصدق:

_لا أستطيع الاستلقاء بوجودك... فقط أريد النوم

تفهم حاجتها ولكنه قال بتعالٍ:

_لا داعي للخجل، لا أنظر إليكِ كامرأة

قالت بنبرة مظلمة: أنت فظ ولكنها حقيقة.

تراجع قائلًا:

_أنت تعلمين أنني لا أنظر إليكِ كامرأة، بل مريضتي، فلا تدوني هذا على صفحة يأسك.

شيء ما عكر مزاجها فعبست بملامحها تجاهد لتجاهله وهي تقول:

_هذا آمن.

قال يتأمل ملامحها:

_لا تنكري أنكِ تضايقتِ

أجابته بهدوء:

_لا لم يضايقني إلا قدرتك على البوح بشيء تعلم أنه سيضايقني، ثم تسرع لتزيينه، كما لو كنت تضع كل الفاكهة العفنة في كفي وتتساءل عن ملامح قرفي فتضع أخيرًا حبة طازجة كي أرضى وأبتسم بتفهم!

لذا أنت العجيب هنا... تحاول استفزازي لأجادلك.. بلي أعلم أنك لا تنظر لي كامرأة لكن ما خص هذا برغبتي بالاسترخاء وهناك حقيقة رغم أنف نظرتك وهي أنك رجل!.. حتى لو لم أرك فأنت كذلك.. كما هو الحال بالنسبة لي، تلك هي الحقيقة.

لم يبالِ بحدة نقاشها وهو يقول ببساطة واستفزاز:

_مستسلمة

أغمضت عينيها تلمس نقاشًا آخر ليس له نهاية فقالت تختصر هذا:

_أنت محق.

قال:

_و جبانة

همست تتراخى بسريرها:

_لا بأس

قال:

_

يمكنك أن تصرخي إذا شئت لكن هذا التظاهر بالثبات.. سخيف

قالت وكأنها تحدث نفسها تشرد بعينيها بعيدا نحو السماء من خلال النافذة المفتوحة وهي تهمس:

_أنت مجبر على الصمود على الثبات، أنت مجبر أن تكون عكس ما تشعر...أنت مجبر أن تحيا أن تثبت. منذ متى كان الانهيار اختيار؟.!

صمت طويلاً بعجز قبل أن يقول بهجوم:

_أنتِ حمقاء.... تحملين نفسك فوق طاقتها، حتى أنك لا تستطيعين الاسترخاء بوجودي...

تلاقت نظرتهما وأحس بإصرارها بينما تشققت قدرتها وكادت تسقط رأسها قبل أن... خطف الكاب الخاص به وغادر الحجرة وهنا سقطت مستسلمة للنوم بعمق

.**

في عيادة دكتور أحمد الورداني.

_إذن أنتِ والدة آيات!

مال يستند إلى مكتبه وهو يتطلع للمرأة الممتلئة أمامه، لطالما تخيل كيف تكون هيئة المرأة التي تركت ابنتها مرتين وأخيرًا لرجل بعمر ابنتها.. كانت عادية مظلمة الروح، تجتهد لتبدو بعمر أقل من ثنايا العجز بوجهها وترهلات جسدها وشعرها الذي أطل من تحت حجابها الذي في حقيقته مجرد ايشارب صغير وضعته لأن الوقت لم يسمح لها أن تمشط الباقي من شعرها... يمط شفتيه بالتعجب لاعتنائها على نحو ملاحظ بأظافر كفيها الممتلئتين تلصق فيها الخواتم الفضية والذهبية إن لم يكن مجرد طلاء أصفر في حقيقته، توليه وجهها الذي زينته باجتهاد مشكورة عليه، وهي تحرك شفتيها المطليتين بالأحمر مفكرة قليلًا قبل أن تقول:

عرفت بأمر تأجيرك لشقتي فبحثت عنك.

قال على نحو مهمل:

_لم تكن شقتك.

تأهبت قائلة بنفور:

_كانت كذلك، للأسف، هذا أمر لا يدعي الفخر.

طريقتها أثارت فيه رغبة العراك لكنه كالعادة بدا رائقًا لا مبالٍ وهو يسألها

طالما هي كذلك بالنسبة لك، لمَ أتيت للحديث عنها؟! وتضييع وقتي بشيء توصمينه بالفشل.

هتفت بعبوس:

_لقد دفعت ثمن كشف، أنا لا أضيع وقتك.

قال دون أن يتطلع لها وهو يعبث بالأوراق أمامه بشيء من الضيق:

_بلى أنا أصريت على ذلك، مع العلم أن وقتي مع المريض عشر دقائق لا أكثر

أحست بالحرج فقالت بعصبية:

_أين آيات؟

لم يتخذ أي رد فعل وهو يتطلع لساعته في إشارة لضيق وقته فازدادت عصبيتها وهي تضيف:

_أعلم بما حدث في شقتي.

هتف يتطلع لوجهها بحزم: "هي شقتي

صاحت:" شقتك شقتك فلتذهب بها للجحيم، أنا أسألك عن ابنتي، لقد رآكم زوجي وأنتما معًا

رفع أحد حاجبيه عند كلمتها الأخيرة وارتسمت على ملامحه اللامبالاة المبطنة بالحنق وكأنها أصابت توقعه، تضرب رأسه فكرة تراءى له معها مشهدها وهي تجاهد نفسها كي لا تفرد جسدها أمامه، ولكنه قال للغاضبة أمامه ببرود:

_وماذا بعد؟

هدرت به:

_تتحدث ببساطة مستفزة، أنا أخبرك أنك كنت هناك معها ثم اختفت بعد ذلك وهذا يضع ألف احتمال الأقل فظاعة فيهم هو انتحارها

ضحك بغيظ واضح وهو يقول:

_هذا درامي للغاية

ولكنه عاد يقول متحررًا من تظاهره بغضب واضح:

_قطعت كل تلك المسافة وقمت بالتحري عن رجل كان مع ابنتك بينما لا تذكرين آخر مرة تحريت أمورها هي!

وتمتم بنفور يحدث نفسه بعدم تصديق:

_الأقل فظاعة.. هو انتحارها!

وأضاف بقسوة وهو يلقيها نظرة متصلبة:

_هل كان فسادها سيقلق مضجعك مثلًا؟

هتفت بارتعاشة متوترة:

_ماذا تعني؟!

ألقاها نظرة تضج بالكثير غلبها الازدراء أشاحت عنها بعيدًا في حرج

حاولت تجاهل نظراته، تتنحنح بمقعدها بارتباك بينما ظل يتطلع لها بقسوة، يكاد ينفجر فيها إلى أن همست بعجز ودفاع:

_آيات لن تفعل هذا، تركتها ولم أرعاها، أراقبها وهي تكبر وأعتني بها كأي أم لكن رياض أجاد هذا، أجاده بطريقة بدت تعذبني، صنع لي ضميرًا يعذبني كلما التقيتها أرى انعكاس فضيلة لم تكن بي يومًا، فأهرب شاعرة بالانتقاص، تجلدني بنظراتها لي، ويأسها مني وتحاشيها لي.. صفعات لا تكف عن ضربي كلما حاولت النسيان، حتى الرجل الذي أحببته كان يحبها ويغريها.. هي نطفة شؤم

شهق دون صوت لا يصدق ما نطقت به للتو وهو يقول دون وعي:

_تعلمين ما يحدث

هتفت تتطلع به بنظرات مرتعشة:

_تظن أنني لا أثق بهذه الفتاة !

لاحظ إشارتها بكلمة هذه الفتاة ولم تقل ابنتي إشارة منفصلة منها عن أحقادها تجاهها، شيء يبعث بأعمق مما ظنه من خلال وضعيهما ولكنه قال يجيب قولها الباهت:

_تركتيها تواجه قذارته على محمل الثقة.. أي هراء هذا؟

قالت بوضوح: لا أريد خسارته.

ازدادت نظرته بالازدراء والدهشة وهي تضيف:

_إذن أنت تعرف أين هي وأينما كانت اعتني بها.. لا أريده أن يجدها.

وهمت لتغادر ولكنه هتف بانفعال:

_إنها تحتضر

قالت بجمود:

_أعلم، فهي وريثته بكل شيء حتى بدائه.. أرجو أن ينتهي ألمها دون داعي لأن تفعلها بيديها مثله.

تجمد مكانه لم يشعر بخطواتها الثقيلة أو ضربها للباب أو صوتها قبل أن تغادر وهي تقول باضطراب:

_فقط تأكد ألا يجدها.

****

في الغرفة ١٠١

ضحكت وهي تراقبه بعيون مرهقة، يتربع أمامها بردائه الأسود الرياضي كما هو بالعادة يمسك القلم ودفتره يتأهب لحديثها، ضايقه ضحكها فهتف: عليك أن تقدري مجهودي، ولا تضحكين مثل كلب البحر.

اعتلى صوت ضحكتها بحيث تطلع حوله سريعًا تنبئه نفسه توقع شكوك العاملين بالخارج فهمس لها: نحن بالمشفى ، هنا لا يضحك المرضى يا جثة.

توقفت فجأة تحملق في أثر كلمته الأخيرة تتلقى ملامح طفولية ساكنة لها نكهة محببة فتخفت نظرتها لتبتسم قائلة بسكون غريب:

_"أنت فظ."

قال وهو منشغل في أوراقه: لن أرد الإساءة، فقريبًا ستحاسبين عليها.

شهقت: "يا إلهي، أنت تزيد الأمر سوءًا."

أخذت عيناه بتأمل انفعال وجهها البسيط يشرد في قول أمها القاسي:

_أعلم، فهي وريثته في كل شيء حتى بدائه.. أرجو أن ينتهي ألمها دون داعي لأن تفعلها بيديها مثله

حاول تجاوز مشاعر الضيق التي التبسته.. وهو يتطلع لأوراقه، مقررًا بألا يزيد الضغط عليها كما اتبع، بينما هي تقول بصوت حانق:

_تأدب في معاملتي.

لم يبالِ وسألها: ها يا غبية ، أخبريني أول من ضرب قلبك لأجله.

بدت لم تنتبه لإساءته وشردت بعيدًا تحاول التذكر ثم قالت مفكرة: هذا كان منذ زمن... كان معلمي في الثانوية

ضيق عينيه وهو يقول بقناع من البرود:

_هل تعتقدين أنني سأسمع هذا، الوقت يا آنسة، تحدثت عن حب، حب وليس مزاح طفولي.

قالت بلوم طفولي: لا تقلل من مشاعري، هذا حبي الأول.

داعب شفتيه بلسانه يستمد صبرًا بملامح غامضة فأضافت بإصرار: أحببته.

صاح: هذا إسقاط نفسي دون أن أعرف القصة، فقدك لأبيك جعلك تتوهمين أن هذا حبًا.

قالت ببساطة: كنتُ ستة عشر عامًا وهو كان خمسًا وعشرين.. لا فرق... كبير.

قال مضجرًا: آيات ، ربما يجدر بي تذكيرك، أن لا وقت لدينا.

هتفت: أف، أنت طلبت إذن استمع دون إرهاقي بتعليقاتك الفذة.

ضم شفتيه إشارة إلى صمته

فأردفت: أحببته من اليوم الأول الذي عين فيه، كان وسيمًا لديه حذاء لامع يعتني به كثيرًا

هتف رغمًا عنه: وقعتي بغرامه لأجل الحذاء! لا إنه حب حقيقي.

تأففت فأشار لها معتذرًا بالصمت بكتم فمه بكفه

تطلعت له بنظرة سمجة وقالت محذرة: حاول ألا يكون أخر وجه أراه وجهك

رد بسماجة مضاعفة: سأتوسل ذو الحذاء اللامع، أن يقوم بهذا.

عبست تعض شفتها السفلى غيظًا قبل أن تصرخ به: اذهب لبيتك الآن.

هتف وهو يضرب الأوراق أمامه: اصمتي وإلا ضربتك.

شهقت بدهشة تلقيه نظرات منفعلة غير مصدقة ترجمتها شفتيها وهي

تلفظ: تبًا لك.

ضرب كفها فجأة وهو يهتف بعصبية: تهذبي مع طبيبك.

صعقت لفعله وهي تفتح عينيها وفاهها مذهولة فأضاف مرعوبًا باستنكار :شكلك مخيف، عودي لطبيعتك، أنا أخاف

راقبت طريقته وهي تهمس بحرج: أنت بشع.

قال واثقًا بتعالي: أنا أحمد.

هتفت بتساؤل بريء: اسمك أحمد؟!

رد بشكل مسرحي متأثر: علمت أنك لم تقرأي البطاقة ولم تسجلي رقمي، أنت حقًا من الأموات، أي فتاة أخرى طبيعية كانت لتحتضن البطاقة وتقبل تفصيلها.

تمتمت بازدراء: هذا مقرف حقًا.

هتف: اخرسي.

صمتت

هتف: أكملي.

أرادت دفعه من أمامها ليسقط أرضًا قبل أن تطرده، لكن الفكرة ظلت تدور بعقلها الثائر حتى قال مستنتجًا: لابد وأنه متزوج الآن وأنجب البنين والبنات، كيف أطلب منه إحياء حبك القديم له!

تغير مزاجها بلحظة لتجيب ببساطة بشكل ملفت: بلي تزوج فتاة شمطاء تدعى كريمان ولكنه انفصل عنها، وتزوجت بآخر، لقد وصلتني أخباره، عانى الكثير معها...

ومالت إليه تضيف بأهمية كامرأة عجوز توسوس بالأسرار: هي تتبع المشعوذين في اصطياد الزوج.

ضحك من طريقتها وهو يتابع ملامحها ليقول بمشاكسة: كان عليكِ اتباع طريقتها.

هتفت باعتراض: لا أريد زوجًا.

راقبته وهو يبتسم شيئًا فشيئًا ابتسامة واسعة رائعة استفزها معناها وهو يقول باستنكار: أعلم.

أرادت تكسير أسنانه لتتلاشى ابتسامته المغيظة وهي تلعق شفتيها ببطء تمكن هو من لمس غيظها وهي تحاول كتمه ليحاول هو لملمة ابتسامته التي اتسعت على أخرها، محاولًا، مجاهدًا، فاشلًا، ضاحكًا بأعلى صوته، ضحكة مجللة دون أن يبالي بأي أحد قد أهمه أمر ظنه بالخارج...

****

مدرسة الشهيد هاشم الدوسري

_"أنا أحمد علاء الورداني، طبيب أورام و

يا إلهي

أخذ يحدث نفسه وهو يقف أمام البوابة الحديدية لمدرسة الشهيد هاشم الدوسري.. يتقدم ثم يتراجع يتمتم بما ينوي قوله ثم يعود لمراجعته ثم يتراجع يسأل نفسه (ماذا سيقول! هل سيصدق، أم سيفتعل فضيحة ليثبت أنه مرغوب، هذا وارد بعدما حدث معه، لقد تركته زوجته بعد قصة حب أسطورية كان بطلها الصالون وهو يتقدم إلى جميلة الحي، كريمان الباشا ليستمر زواجهما سبعة أعوام ثم ينفصلان في قصة غامضة لا أهمية لها إطلاقًا، لديه ولد وبنتان تركتهم له بنت الباشا لتكون زوجة لآخر.. هذه مأساة حقيقية تشهد له، فبنت الباشا

صاحب اللقب فحسب، فهي من عائلة الحلاقين بالحقيقة، هي ابنة الباشا؛ فقط لأن الألقاب مجانية، فقد تركته وتزوجت آخر بسرعة تستجلب الشك فتثبت ما ادعته الفتاة التعيسة آيات، أو أنها تتوهم لعقدتها تجاه تصرف أمها الغريب بالهروب والزواج كما أخبره صاحب الشقة، كم هي ساذجة فهناك احتمال أقرب للتصديق، أو هو الحقيقة، مهما كانت التفاصيل بالنهاية لقد تُرك الرجل بأطفاله ولابد وأنه مدخلًا كافيًا، مقنعا له لحالة آيات ... سيتفهم

وصل لهذه الفكرة ليتقدم أخيرًا بثقة...

أدار عينيه في أرجاء الحوش المدرسي، المكان له أثر ما يحدث، جاف، باهت، قديم، متهالك

تتوقع من الجو العام أموات بالداخل خلف ركام من الأخشاب القديمة المتهالكة وهو يتقدم على الأرض اليابسة بحذائه الرياضي الأسود يرتدي زيًا مناسبًا عن عادته لم يتخل فيه عن أناقته بلونه الخفاشي الدائم، بنطال جينز أسود وقميص رمادي بأكمام يثنيها إلى الكوعين ولحية بدأت بالإنبات، وجها جميلًا لا يناسب المكان، غريبًا، لامعًا، رائعًا أبهر الطالبات حوله وهو يمرر كفه بين خصلات شعره الناعم ليعيد ترتيبه وسط شهقات الإعجاب من هؤلاء المراهقات كالأفلام الهندية المطاطية بانفعالاتها، للحظة تراءى له أنها بينهن تقف على قرب تلقيه نظرات شقية مغازلة بتنورتها الواسعة وقميصها الأبيض ذو الياقة التي تحمل وجها ضاحكًا بحمرة الصحة، لم يلونه المرض بعد بألوانه القاتمة، تتحرك فيتقافز حولها ضفيرتان لم يلملمها البؤس بقيد اليأس متحررتان بلون القهوة، وعينان شقيتان صغيرتان لم ينهكهما الشقاء، تتقافز بشقاوة، وتشهق إعجابًا بولع، وتهمس لرفيقاتها عن سحره وهي تشاكسه بنظرات عينيها، تطلق ضحكاتها المرحة الواثقة الذائبة بالشقاوة والحياة ... أحب الفكرة المراهقة المبهجة لها و التي تسللت إلى روحه فدفعته ليبتسم ذات الابتسامة الواسعة المعتادة لأجلها... حقًا

****

في مكتب حجرة المعلمين

تنحنح وهو يتطلع لكوب الشاي بحوافه الوسخة يقسم داخله أنه لن يلمسه حتى وإن انفجر رأس هذا النحيف الجالس أمامه خلف مكتبه الرث يرشف بنهم من كوبه العالق فيه بقايا سوداء بقعره من الخارج انكمشت ملامحه بعلامات متقززة يشيح بعيدًا نحو هؤلاء المتسللين مختلسين للنظر عبر كل مداخل حجرة المدرسين، يسترقون النظر بهمسات الإعجاب والانبهار فتنهد عائدًا يتطلع لذلك النحيف مجددًا متمنيًا أن ينتهي من وصلة العزف الخاصة بمشروبه المفضل، وارتاحت نفسه حين وضع أخيرًا كوبه القذر مكانه الأقذر ليرخي نظرته خلف نظارته المشبرة بفعل البخار وهو يتثاءب كالخرتيت فأظهر بشاعة غابات فمه من الداخل ليقول بتكاسل ملفت: من آيات ؟

مسح الدكتور أحمد على وجهه يستمد صبرًا ثم قال وهو يشير لساعته: لقد تحدثت عنها لمدة عشرين دقيقة قبل أن تستأذن لشرب الشاي والتفكير.

قال النحيف بتفهم: أعني، ما المطلوب؟! لقد تحدثت عن آيات تلميذتي منذ سنوات، مع العلم أنني لا أتذكرها، وأنه كان لديها مشاعر تجاهي ولم تخبرني لأنها أحست بالحرج وقتها، والآن تغيرت الأمور، وأنت أتيت لتوفيقنا..

وهب فجأة كالتمساح يميل على مكتبه بنصف جسده يمد رأسه المسطح إليه حتى انفجرت أنفاسه بوجه الطبيب وهو يقول بشك وخشونة: هل أرسلتك بنت الحلاقين لتتسلى بي بعد فعلتها الفاجرة؟!

ورفع إصبعه مهددًا بعيون يطل منهما الشر وهو يضيف بحدة: ألا تستحي بوجهك وجه السحالي هذا لتأتي إلى هنا وتتلاعب على رجل عالم مثلي.. خسئت.

راقبه الطبيب بوجه قاتم وهو ينسحب لمقعده البالي مجددًا، وهنا التقط أنفاسه التي كان يكتمها، ليهدأ قليلًا، يستعيد ترتيب أنفاسه قبل أن يقول بلامبالاة وملل:
_هذا سيناريو درامي مبالغ فيه!

وسحب منديلا ورقياً من جيبه واخذ يحركه في الهواء يطرد به أثر انفاس النحيف حوله، فتعالت الضحكات للعيون المراقبة من الخارج ولكنه لم يبالِ وهو يردف بنفس الملل: فقط أنا أحدثك عن قصة لا علاقه لها بعلاقتك الأسرية الدرامية.

توحشت ملامح المعلم وهو يهدر: كيف تكون طبيبًا وأنت..

تأفف وهو يجيب مقاطعًا له بلهجة آمرة: اسمع لم آتي إلى هذا المكان الرائع لإقناعك بشخصي، فقط أخبرتك ما يمليه علي ضميري.. فالتزم حدودك

هتف المعلم بجنون: ضميرك! لا أفهم.

هم الطبيب بقول شيء ما لكنه تراجع، كلماتها تضرب ذاكرته: إياك أن تأتي إلي بحب في حقيقته شفقة.

أجابها حينها بحيرة: نحن نسلك مسلكًا آخر، هذا وقت ضيق لن تتحرك فيه إلا مشاعر الشفقة.

قالت بإصرار: فقط عليك الاكتشاف لا السؤال.

أعاده للمشهد صوت التلاميذ بالخارج، كان جرس الخروج قد ضرب

فشد قامته أخيرًا ليعلن قوله الأخير بكل هدوء: فقط أخبرتك بمشاعرها إن كانت تعني لك، فكر بالأمر، هي تح...

تراجع ومد له بطاقته وهو يضيف: قرر سريعًا واتصل بي.

****

في المشفى

تسلل للحجرة يتأكد من خبر الممرضة وينفي إحساسه بأنها تتحايل ولم تنم مريضته سيئة الحظ، فألقى نظرة يطل بوجهه عبر انفراج الباب، كانت تلتف

بغطائها الأبيض كالكفن، تمنحه ظهرها، التقط منها حركة أدرك فيها يقظتها فدخل وأغلق الباب استدارت تتطلع إليه بتساؤل يحمل تساؤلاً آخر وهي تعتدل جالسة تعيد ترتيب حجابها ونفسها:

_لمَ أتيت؟

لم يجبها وهو يخطف المقعد الخشبي ويجلس بوضع معكوس قبالة فراشها، راقبته بألفة وبعناد نطقت: هل ستجلس!؟

قلدها بطريقة ساخرة: هل ستجلس! بل سأظل واقفًا تحت إشارة خدمة سيادتك.

تجاهلت سخريته تتبع خيط خفتت له ملامحها وهي تسأله: هل التقيت أستاذ أيمن؟

شعور أصابه بالصمت لدقائق عجز عن إجابتها ولكنه تخلص منه ليهتف بطريقته:

ألا تلاحظين كم الأسئلة منذ دخولي، فقط استقبليني أولًا.

قالت بهمس عميق مؤثر: رفضني؟.

هتف بنبرة مبهمة ومعبرة بالضيق: قانون الجذب يا آنسة.

قالت بإحباط: إذن رفضني.

هتف: لن أتحمل هذا الجو الكئيب سنتحدث بالخارج هيا.

تساؤلات كثيرة دارت برأسها خرج منها أحدهم همسًا: أين؟

أجاب: أي مكان بعيد عن قبرك هذا.

تطلعت له عند كلمته الأخيرة بضيق فأضاف سريعًا بصوت حانق: لا تلقني نظرة البومة هذه، أخبرتك أني أخاف، هيا تحركي.

أخذت نفسًا عميقًا ثم أطلقته ببطء لتقول بعدها: هل أنت تمزح، أنا مريضة.

قال ببساطة: لهذا السبب سنخرج.

فكرت قليلًا ثم بررت: ولكن فستاني بمنزلي ولا أملك

توقفت وهي تتابع حركته تجاه دولابها بالغرفة، نظرة متفاجئة مرت بخاطرها كيف لم تنتبه لوجوده إنها تكتشفه للتو! ، بينما أخرج منه حقيبة ورقية ورماها أمامها دون اهتمام وهو يقول: نسيت أن أخبرك أن إدارة المشفى أرسلت لكِ هذا.

همست وهي تتفحص الحقيبة: لي !؟

فوجئت بفستان أسود رقيق أنيق معه حجاب حريري بلون الذهب وصندوق كرتوني داخلة حذاء رياضي بنفس اللون الأسود الفاحم الأنيق

تعرت ملامحها بالذهول وعينها تفضحها بتوهج سعادة طفلة بهدية العيد تورد خداها بارتعاشة حياء آسرة وهو يتأمل انفعالها بعيون رقت لها يغوص بانفعال وجهها الذي تخبط بألوان الطيف بهجة بالرغم من إرهاقه وهي تلمس هديتها برقه كأنها تخشى خدشها.. تهمس غير مصدقة: ولمَ أنا؟

أفاق من عمق حالها وهو يستعيد مرح نفسه بقوله المستخف اللامبالي:

_لأنك المريضة المائة تقريباً، لا أعلم سياسة المشفى

همست بتساؤل وحيرة: وكيف عرفوا مقاسي؟

تهرب قائلًا بحزم: لا أعلم هذه الأمور يا آنسة، هل بإمكانك أن تسرعي.

حدثته كما لو أنها تحدث نفسها بعزة نفس: لكن لدي فستان وحذاء بشقتي و

انفجر فجأة ساخرًا على نحو هائج: ذلك الفستان غريب الهيئة، لا أدري أي أناقة في فستان أبيض بنقاط سوداء فوقه شيء أزرق!

تأفف مضيفًا بضيق لا يعرف سببه:

_لا تتفلسفي، تقريباً كان بالكيلو ولم تجدي خيار!

تطلعت إليه بنظرة مُحرجة تسأله: هل تفحصته؟

أجاب بنفس أسلوبه حيث حركات وجهه المرحة تغطي أثر انفعاله قائلًا: لم يكن هناك غيره مشنوق خائف مرتعب من اللمس كصاحبته.. سأخبرك سرًا، يبدو أنه مل منك للغاية فبدا أنه يحاول الاختباء وأنا أقترب منه.

واجهته بنظرة عصبية وهي تهتف به: اقتربت منه؟

راقب انفعالها الطفولي واستمتع بغيظها وهو يقول: نعم تحرشت به، وبحذائك المقطوع.

تراجعت بهمسات تائهة :"أنت فظ"

أعادها لمضماره وهو يطرق إصبعيه ببعضهما هامسًا بتنبيه:

_فظ ووسيم... هيا سأنتظرك امام الباب

وغمز بعينه

سنتسلل للخارج من الباب الخلفي، انها المغامرة.

ادركت محاولته لبث حماسها ف جارته بإماءة مبتسمه...

وغادر الحجرة ملوحًا.

****

نادي يطل على النيل

ابتسم لفشلها في إخفاء سعادتها بالحذاء وهي تتطلع إلى محيط المكان بلامبالاة تارة ثم تعود تارة أخرى سريعًا باهتمام لتأمله بابتسامة طفولية مبتهجة تحاول إخفاءها عنه بحياء، تضم شفتيها بغبطة لتعود تخطف نظرات رهيبة تصيب بالدهشة إلى حذائها الجديد، إنها حتى لم تنظر لفستانها الأنيق المحتشم أو حجابها الذي أظهر جمال وجهها بلونه الذهبي فبدت كقطعة حية من الذهب بابتسامتها الخجولة تترك طرف حجابها يتدلى فيطيره الهواء دون أن يضايقها، فيزيدها وجودًا كفراشة محلقة بأجنحة ذهبية... ولكنها فراشة مسلوبة العقل بالأحذية فيبدو اهتمامها للأحذية أمر غاية بالأهمية حقًا، فذلك النحيف برغم حالته كان أول ما لفت نظره فيه، اهتمامه بحذائه وتلميعه بشكل يتناقض مع ملابسه ونظارته وكوب شايه . .. وأغمض عينيه عند الفكرة المقززة ليتجاوزها مستعيدًا صورة جثته وهي تمد ساقيها قليلًا للتمكن من تأمل الحذاء عن كثب دون الاهتمام بأحد، كانت رائعة المحيا بطبيعتها الساذجة، لها لمحة جمال تميز شخصها، ذاتها، عزة نفسها، حتى في قبولها للشيء ثمة اعتلاء يرفع قدر الشيء مرات، تلك الساذجة بقواعدها وقلاعها ستندفن قريبًا:

_ما اسم حبك الثاني.؟

اسرع يقطع تفكيره بسؤاله المفاجئ فتطلعت له لتجيب بتفكير: مُهاب.

سأل: زميل بالجامعة!

أجابت: سأخبرك أمرًا، نحن الفتيات نرى الذكور من هم في مثل أعمارنا أطفالاً

قال: لهذا أحببت معلمك!

أجابت: ربما، ولأنه كان ساحرًا، رائعًا، مميزًا، يبرق.

هتف بضحكة مفاجئة: من!! أيمن كوباية؟!

ضاقت عيناها هامسة: ماذا!؟

حاول كتم ضحكاته بشكل جعل وجهه يتلون وهي تراقبه بعدم فهم إلا أن لفظ أخيرا بصعوبة:

_فليكن تحدثي عن إيهاب هذا.

هتفت:"مُهاب" وليس إيهاب، إنه يدرس بجامعة أخرى تكون بجوار جامعتي.

ألقاها نظرة صامتة متجمدة تطلعت له تساؤلا فقال بغيظ: على أساس جامعة أخرى هذا لا يخرجه عن قاعدة مثل أعمارنا!

فكرت قليلًا ثم هتفت بضجر: لا تقاطعني

التقط كوب الماء ليرشف القليل وهو يقول بتعجب: عندما تشرحين أشعر بالغرابة، هل تتناولين مسكنات بكثرة؟!

ضربت ساقه بمقدمة حذائها فتألم شاتمًا: غبية

همت لتعيدها لكنه قبض على قدميها بين قدميه فبدت أحذيتهما متشابهة باختلاف المقاس وقبل أن تصرخ معترضة تراجعت تهمس بتفاجؤ: يشبه حذاءك للغاية.

أجاب وهو يضيق أكثر حول قدميها بتحدي: إدارة المشفى لديها ذوق عالي.

نسيت شعورها بالعجز وهي تتأمل أقدامهما وتمتمت شاردة فيهما بشيء من الحزن والشك: "بل إنه ذوق خاص.

أحس أنها ترمي لشيء ما ونبرتها دليله فسألها يغير الموضوع: ماذا أطلب لك؟

أدركت شيئًا ما فهمست بحزن دون أن ترفع وجهها: فقط تريد ضمان الجنة بأجر المساعدة.. لا شك أنها صفقه رابحة

استسلم قائلًا بصوت مسموع واثق وهو يترك قدميها: وما المشكلة في هذا؟ هل تريدين مني تركك وأخذ جزاء يبعثني إلى الجحيم.! ثم هل تعتقدين أن حذاء وثوبًا ووجبة أمرًا يستحق.!

همست بحرج تأكل له حروفها تشعر بفراغ قبضته الآمنة حين ترك قدميها: _بالنسبة لي.

ابتسم ابتسامة دافئة قائلًا بصدق وهو يتطلع لوجهها المحرج: لو بيدي لاشتريت لكِ حياة أخرى يا آيات .

رفعت وجهها إليه تتأمله عبر كلماته، ثمة شعور لم يمر عليها قبلًا، غريبًا، عجيبًا، دافئًا، أسكن كل شيء حولها فجعل من ابتسامته الدافئة عالماً خاصاً أسكن روحها لتهدي كفيها لبعض بلمسة حانية تكتشف فيها جمال لحظتها وهي تنقل عينيها إليه، نظرة خاطفة شاكرة قابلها بابتسامة شقية ابتسمت لأجلها تساير شقاوته بقول:

_أريد وجبة دسمة من خمس طبقات دجاج ولحوم و

تلاشت ابتسامته وهو يقاطعها هاتفا: أنتِ! هل تعتقدين أني أعمل بوزارة المالية.

قالت بمرح: أنت طبيب يعني حصالة.. بنك متحرك.. بطاقة...

تهكم: كنت أعتقد ذلك أيضا، حتى أصبحت طبيبًا.

همست بشقاوة: نصاب.

قال موافقا: معظمنا وليس جميعنا، انظري أين أضيع وقتي الثمين بدلًا من حصد الملايين في حصالتي.

أعادت طرف حجابها الآخر للوراء وهي تقول: لديك عمر طويل ستكنز الملايين وستتزوج.

زفر بتمني: آه متى يحدث هذا؟

قالت بأسف: أعتذر عن تعطيلك.

علق قائلًا:

_وكأنك مركز الكون.. أعتبر نفسي في إجازة قصيرة

ضربت المنضدة بنفاذ صبر ونبرة عصبي هتفت:

_أف هذا قاسي جدًا، وكأنك تخبرني أنني سأموت قريبًا.

أجاب بنفس نبرتها:

_وهل أخبرتك أنه بعد أعوام.

صاحت:

_يا إلهي، اصمت.

تراجع بمقعده يهدئ من نبرته:

_مجنونة، أخبريني...

قاطعته: كيف هي عروسك.؟

أجاب سريعًا قولًا واحدًا باستمتاع:

_رائعة.

لوت شفتيها وهي تجيب أسرع:

_حسرتي عليها

ضحك وقال: اتركيها بحالها، وأخبريني عن حبك الثاني، سيد إيهاب.

هتفت بغيظ:

_مهاب بالميم بالميم

_حسنا، أخبريني تفاصيل.

تنهدت وهي تتذكر:

_تعرفت عليه في مسابقة خاصة بالجامعات، كنت من ضمن سبع طالبات كنت أقلهم جمالًا وبهجة وكان هو شاب هادئ بسيط أحببت هذا ورأيته الأنسب لي.

تعجب لقولها فعلق قائلًا:

_تقصدين رأيته فقيرًا معدومًا لا طموح عنده يتعداك، هذا قمه البؤس.

لم يضايقها قوله بل أكدت:

_رحم الله امرئٍ عرف قدر نفسه.

قال بنبرة لم يستطع أن يخفي فيها الأسف: هل تطبقين هذا على قلبك!

قبضت كفها ورفعتها وقالت بقوة:

_بيدي هو.

همس مفكرًا: وهذه المشكلة.

أكملت بحماس: كان يرتدي النظارات الطبية، لديه وجه مربع عيون واسعة شفاه عريضة وانف صغير، خجول وطيب القلب، كان شخصًا واعيًا مسؤولًا لديه قلب كلارك

همس بعدم فهم: من؟

أردفت: كلارك في فيلم. wakee

تجاوز عن حماقتها كما تبدو له لحظتها ليقول:

_أكملي

قالت بلامبالاة:

_فقط لم يكن شيء بيننا خشيت أن يرفضني بحجة الدراسة وأنه طالب فالتزمت الصمت

ضاقت عينيه فأضافت:

_كنت سأعترف بانتهاء الدراسة

ضاقت عيناه أكثر فأضافت: أو بعد جيشه

تراجع فأضافت: أو إيجاد عمل

هتف بها بعصبية:

_كفي، لم تكوني ستفعلين أبدًا، أنت لن تستطيعي فعل هذا، ولا أشجعك لكن تعلمي أن تندمي على أشياء فعلتيها وليس الندم على أشياء لم تفعليها يا غبية

لم تنفعل كما اعتاد أمام عصبيته بل وافقته بقولها:

_أنت محق، كان يتطلع إلي بنظرات تحمل الكثير ولكني لم أجرؤ

ارتاح لموافقتها فأضاف:

_هل تظنين أنه بادلك المشاعر؟

تمتمت: أنا أشعر

لم يسمعها لكنه تفهم من ارتخاء ملامحها وهو يتنهد أخيرًا: حسنًا.

****

"خجول. متواضع هذا سيسهل الأمر."

أخذ يتمتم وهو بداخل المصعد حتى توقف، فتحرك خارجه يبحث، ثم انطلق نحو أول باب وقعت عليه عيناه فيطرق باب الشقة وهو يتمتم:

_مهاب سيد حسين.. وأخيرًا عرفت عنوانك.

ولم يمر الكثير حتى فتحت له امرأة بدت باكية في حالة يرثي لها وهي تتلقاه بقول:

_أنت صديق مهاب الذي اتصلت، أرجوك الحق به، لقد تعارك مع والده بسبب ما فعله، هذا الولد لن يعقل أبدًا، كم مرة يكررها.

لم يفهم ما يجري وهو يسألها:

_ماذا فعل؟

تراجع عند خروج فتاة تورمت عيناها من البكاء وهي تتجاوزهم والأم تهتف

_أرجوك لا تغادري، مؤكد فهمتي خطأ، هو يحبك يا شمس.

صرخت الفتاة فيها:

_كم مرة علي تحمل خيانته! هذه المرة رأيته بعيني يا خالتي، لقد صبرت كثيرًا على خيانته وفراغة عينيه، مررت خيانته علي الفيس بوك ومررت خيانته مع زميلاته في العمل ومررت خيانته مع ابنه الجيران لكن يعرض على صديقتي الارتباط وبيننا خاتم اي وقاحة هذه.

وألقت حقيبتها أرضًا بانفعال وهي تهدر:

_ابنك مريض لقد فعل كل شيء حرام ومقزز ولم أعد أحتمل تصرفه المريض كل مرة يأتي عائدًا يعتذر ويبكي ويعد بعدم تكرار وسوسة الشيطان.. إنه يصدق نفسه، وقد بدأ يحولني لمجنونة.. تبًا له

والتقطت حقيبتها قبل أن تركض للمصعد بانفعال وغضب والأم تدفع الطبيب المذهول هاتفة:

_"الحق بها، المرة الماضية ضربته بالسيارة"

شهق مستدركًا وهو يلحقها دون أن يدري ما الذي يفعله.

_"يا آنسة، انتظري.

توقفت تتطلع له والشر يتقافز بعينيها وهو يبحث عن قول لا يزيدها شر

فصاحت هي:

_" ابتعد عني الآن..

لكنه أصر على إيقافها وهو يتصدر طريقها بقول:

_"حسنا اهدئي ولنتحدث، أنا صديقه

قالت بثقة:

_"كاذب، أنا مخطوبة له منذ أربع سنوات، أصب كل همي فيه، خلايا عقلي تتبعه، وأعرف ألوان ملابسه قطعة قطعة، هل تظنني لا أعرف أصدقاءه ونساءه، أنت حتى لم تلتقيه قبلًا.

ألقاها نظرة مندهشة معجبة وهو يقول:

_"هذا يعني أنك تعلمين أنني لست بصفه إذن بإمكاننا الحديث.

قالت بتهديد:

_" لا أريد سماع مصيبة أخرى من مصائبه... تعلم لو فقط يواجه، إنما هو يهرب ثم يعود باكيًا كقط مبلول يقسم بكل الديانات والرسل والأماكن المقدسة أنه أخطأ ولن يكررها هذا إن تكرم واعترف إنما ٩٠٪من أخطائه يخلق لها قصصاً حتى يمل المستمع ويتوه فيسامح، هذا مرهق مرهق للغاية لقد بدأت أفقد صوابي، الأسبوع الماضي أرسل لصديقة مشتركة بيننا صورة عارية له، المضحك أنه أقسم أنها ليست له.. يا إلهي وماذا عن رخام الحمام خلفك والمرآة

والمكان.. أليس هذا بيتك! يقول أقسم أنه ليس بيتي... وأنا وهو نقف بالمكان! . هل أنت متخيل حجم الإرهاق الذهني!

علق قائلًا:

_ولمَ تصبرين على علاقة مؤذية كهذه.؟!

قالت بعزم:

_أنت محق، ولمَ أصبر، سأقتله.

وتحركت بعزم وإصرار تتمتم بالوعيد وهو يقف مكانه لا يستوعب ما الذي جاء به إلى هنا... إلى أن زفر أخيرًا وهو يقول:

_"لا يمكنني أخذ انطباع شخص من شخص آخر، ففي البداية لم يكن علي تصديق قصة قلب كلارك هذه.. غبية.

****

شركة ******المصرية

_"وأخيرًا استطعت إيجادك"

جلس قبالته في مكتبه الضيق يتطلع لوجهه المخطوف وهو يضيف:

_أعطتني والدتك عنوان عملك لا تقلق لن تأتي خطيبتك إلى هنا، هي تقريبا ستدهسك في طريقك للمنزل.

همس بتوتر:

_هي أخبرتك بهذا!؟

أجاب بثقة:

_بل وأقسمت بكل الأديان والرسل والأماكن المقدسة

فكر قليلاً بقلق ثم انتبه قائلًا:

_ومن أنت إذن؟

وقع عليه السؤال على نحو أحرجه وهو يتنحنح مفكرًا في الإجابة، يضرب رأسه بالسؤال.. ما الذي أتى بك إلى هنا حق.. ألم يكن ما رأيت كافيًا لينتهي الأمر وتقطع الأمل.. ما حل برأسك جعلك تأتي خلف احتمال أنهم يبالغون... هل ما رأيته من حال آيات دفعك لأن تسمح لنفسك بمنح الفرص للتفاهم والتحقق قبل الحكم...والتأني لأجلها والمحاولة.. ألا تفهم، حتى وإن كان عفيف من الصالحين فهو ملك لأخرى

_تباً

اعتلى صوته عند كلمته الأخيرة

فقال مُهاب: عفوًا؟

فأسرع الطبيب قائلًا:

_لقد أتيت لسماعك

أصغى إليه بنظرة عدم فهم فاستأنف حديثه:

_شمس. أهي مضطربة... أحيانًا؟

تراجع وهو يجيبه باستجابة:

_إنها مجنونة، لم أكن أريد هذه الخطبة من الأساس، أمي أجبرتني.

فوجئ باعترافه وهو يردف بإصرار:

_هي مختلة تتخيل خيانتي لها دومًا، هذا شعور بالنقص، المرأة الواثقة لا تتبع خطوات الرجل، لا تشك به، لا تجعله عصا يدار حوله خيط خيالاتها.. هذا يدفع بمزيد من الملل والبعد .

بدا الطبيب يقتنع بحديثه العقلاني وخاصه بقصة إجبار والدته فاسترخى بمقعده وهو يوافقه:

_بلى النساء لا يخضعون للقواعد، إنهن مستثنيات.

زاد حماسه وهو يردف:

_يحطمني أمرها، أشفق عليها، إنها لا تعي أحيانًا ما تفعله.. أنا أحيا في تهديد دائم، أشفق على نفسي أحيانًا

أسرع يسانده وهو يقول:

_لا تقل هذا، لا تسمح لأحد أن يجعلك تشفق على نفسك.

ارتسمت ملامح الأسى على وجهه وسرعان ما اتسعت عيناه وهو يتطلع خلف الطبيب الذي تطلع بما يحدق فيه:

_كان رجل في الخمسين يتطاير الغضب من مقلة عينيه وهو يحمل أكياسًا ملونة للهدايا بيديه، وألقى بهم بحدة على مكتبه قبل أن يهدر به

_جئتني أنت وأمك وتوسلتماني لأخطبها لك، نظرتي في محلها حين رفضتك أربع مرات والخامسة قبلت كفاي توسلًا لأقبلك ظننت أن إصرارك دليل صلاح حالك لكنك كذيل الكلب، وذيل الكلب لن ينعدل أبدًا، كنت أخشى أن تكون سببًا في قطيعتي بأمك واليوم أمك نفسها تتبرأ منك، لم تعد تتحمل العيش مع شخص مختل مريض مثلك

وضرب المكتب بكفيه بعنف يضيف بوعيد:

_إياك أن تقترب من ابنتي مرة ثانية

هب مُهاب من مكانه والطبيب يراقب يتوقع التالي.. مؤكد س.

ولكنه بكى... ماذا؟

لقد بكى وقفز يتوسله:

_"خالي أرجوك أهدأ أنا أعشق شمس لا يمكنني التخلي عنها، هي حياتي، ما حدث هو تخطيط لتفريقنا أقسم لك"

تسمر الطبيب مكانه دون حراك والرجل يتطلع له دون تصديق كذلك، قبل أن يلفظ بالقول المقيت الحازم:

_تعالج.

وتركه وغادر بينما تعالت أصوات النحيب والطبيب يبحث عن الدموع ليصدق ما بدا له مسرحيًا وفوجئ فعلاً أنه يبكي وينوح هاتفًا

_" لا تتركيني شمس "

ظل يتابعه وهو ينوح بنظرة مندهشة انتهت بصيحته:

_"اصمت"

توقف مُهاب فجأة يتطلع له:

ظلت نظرة الدهشة تطوف بوجه الطبيب وهو يقول:

_"كفى... لقد أرهقتني كذلك.. اسمع

ومد بطاقته وهو يستكمل حديثه بنفور:

_هناك من يحتاج وجودك، إن أهمك الأمر اتصل بي، وأتمنى ألا تفعل

وهب ليغادر لكنه توقف ليضيف:

_آه وأخيرًا، تعالج حقًا أنت مريض تحتاج للعلاج وهذا ليس عيبًا.. فقط ساعد نفسك

وأكمل طريقه للخارج وهو فاغر فاه مازال يسيطر عليه الذهول.

****

في المشفى

ترجل من سيارته وهو يتمتم بكلمات غاضبة يأخذ طريقه نحو المصعد يشغله ما حدث، لا يرى ما حوله إلا أفكاره ومازال تأثير الموقف على وجهه حتى توقف المصعد ومن ثم اتجه إلى الغرفة ١٠١ وطرق بابها بهدوء

انتبه لانفراج الباب لتستقبله الممرضة بابتسامة وهي تهمس بتساؤل:

_هل أتى؟

عقد حاجبيه وهو يقول: من؟

أشارت له بإخفاض صوته وهي تجيب "فارس الأحلام، إنها تنتظره منذ بداية اليوم وقد تألقت لأجله... ألم يأتي؟

أدرك الطبيب ما ترمي إليه فقال:

_سيأتي، دعيني أدخل لها الآن

وأشار لها بالابتعاد عن الباب فتحركت بحرج قبل أن تغادر بإحباط بينما تصادم بوجه متلهف ترتدي ملابسها الجديدة وتضع بعض الزينة يتوقع أنه اقتراح الممرضة فتنهد وهو يجلس على أقرب مقعد قائلًا بإحباط:

_ترتدين الحذاء بالفراش!

قالت ببساطة: " أحببته"

وسريعًا سألته:

_أين مُهاب.. ها أنا فكرت بإيجابية حتى أنني استعديت..

وابتسمت وهي تهتف بأسلوبه:

_قانون الجذب يا فتاة

حاول أن يبتسم لكن تراجع، يسترخي بتنهيدة من أعماقه فانشغلت بحاله وهي تقول:

_ما بك! ولمَ تجلس بعيدًا.. تخشى إخباري برفضه.

تطلع لها باستنكار وهو يقول:

_للعلم لم يكن سيرفض لكني سأخبرك أمرًا

وهب ليقف قبالتها قائلًا:

_ماذا تري أمامك؟.

لم تفهم لكنه استكمل حديثه قائلًا:

_أنت مريضتي بإمكاني تركك هنا لكني قررت أن أكون طبيبك وبشكل ما منذ ائتمنتني على سرك أصبحت رفيق

ارتعشت شفتاها بتأثر وهو يضيف:

_والرفقة هي الصداقة والصداقة هي في حقيقتها أن أكون جديرًا بأن تأتمنيني على كرامتك... وأنا لن أهينك.

سألته: لمَ تقول هذا الآن؟

أجاب:

_لقد رأت عينك وكل ما بعد ذلك تخيلات، قصة قلب كلارك والوضوح والاتزان هي تمنيات خيالك في شخص رسمه عقلك وبحث عن صورة واقعية له، حاجتك النفسية وقواعد عقلك الفذ تعارضا، فقام خيالك بصنع الصورة التي تلبي احتياجك النفسي، ثم بدأت تبحثين عن هيكل تلبسيه الشخص الموجود في خيالك فقط... سأفاجئك وأخبرك أنك أحببت شخصًا لا وجود له بالواقع هو بخيالك فحسب، أنت لم تحتكين به على النحو المطلوب لتحبينه، فقط مر أمام عينيك ، أما أنا فدوري أستكمل اكتشاف ما رأت عينك... هذا مُهاب سيكوباتي مرهق..

همست بحزن:

_ماذا حدث؟ لم أفهم

مال يتطلع لعينيها وقال بحزم:

_السيكوباتيين يمرون بالرأس

ونفخ بوجهها هامسًا:

_انتهوا

وزفر وهو يضيف:

_ودعك من ضميري في منحه الفرصة، لعله، فكل شخص يحتاج فرصة... أما الآن فالتالي

صمتت بإحباط حتى ظن أنها غفت فلوح أمام وجهها فقالت تعترف بيأس:

_بلى إنها حقيقة، أنا لم أحتك بأحد حتى يمكنني أن أحب طبيعته، أنا أحب ما ينسجه خيالي لصورته

قال مساندًا متفهمًا:

_وهذا لا ينفي أنه قد يكون صالحًا أكثر مما تخيلتِ، فقط هذا مُهاب مضطرب ولكنه ليس بشخص شرير خبيث.

أحس بإحباطها فقال:

_لا أظن سيتحطم قلبك على شخص لم تعرفينه.

همست بخبر:

_ولكني عرفت عبد الوهاب.

تحمس:

_أخبريني عنه

وأضاف برجاء:

_ولكن كوني دقيقة

أجابت:

_بلى هذا رأيته وتحدثت إليه أثق فيما أقوله.

سألها:

_كان بينكم شيء؟

قالت:

_عبد الوهاب شخص حالم، متسرع، طموح، تمنيت أن يكون في حياتي شخص سيجعل من غد أجمل، هو وسيم جدًا، عيون واسعة دافئة وشعر كث جسد ممشوق.. إنه جذاب بشكل عام، لديه شهادة جامعية عليا.

قال: كلهم لديهم شهادة وهذا لا يفرق شيئًا في طبيعة البشر

قالت بتأكيد:

_فقط أخبرك أنه مميز، مميز جدًا

****

أمام مبنى حديث الإنشاء

صوتها يرن بأذنيه:

"كان رائعًا قال لي أني مميزة، منحني جزءًا عظيمًا بنظرته لي، الحقيقة أحببت براءته ولكني غادرت خشيت أن يؤلمني إن تركني... فأنا أُترك دون أسباب "

ردد يتطلع للمبنى الجديد بتمعن:

_"عبد الوهاب موسى"

ثم سحب نفسًا ودفعه بقوة قبل أن يأخذ خطواته نحو المبنى بإصرار

_اللون الأحمر جيد

_هل أنت واثق سيدي

_بلي واثق

_الأحمر ؟

استمع لصوتين واضحين بفعل الفراغ حيث يتم تشطيب المبنى وهو يقترب إلى الصوت الصادر من إحدى الشقق بها أمامه

يرى شابًا قصيرًا بشعر منتوف وآخر بملابس غمرتها بقع الألوان يعتلي برميلًا والقصير ذو العيون الدائرية والرأس الكبيرة يهتف:

_لمَ تكرر سؤالك؟

فكر قليلاً وهو يتطلع له يتساءل بإلحاح وتعجب: هل هذا بالغ الوسامة الذي وصفته؟

ويعيد النظر بشك نحو العامل ويهز رأسه بالنفي أن يكون المعني هو الرجل الذي تجاوز الأربعين فعاد يتطلع للقصير الذي اختفت ملامحه خلف شاربه ولحيته فبدا كعرائس المسرح بقصره ونحافته والعامل يجيبه بنفاذ صبر:

_لأنه الأسبوع الماضي قمنا بإعادة تلوين الشقة كلها بلون آخر مختلف عن اختيارك السابق والذي قبله

قفز القصير بعصبية:

_هذا عملي عليك قول حسنًا فحسب، ما تفعله تأخذ عليه أجرًا.

هتف الرجل بضيق: سيدي أنت لا تستقر على قرار نهائي، تتحمس فتسرع بأخذ القرار الذي يكلفنا معدات وأدوات ومجهود ثم تحبط فنضرب بيدنا كل شيء قد أنهكنا فيه، فقط سيدي أخبرنا ما تريده أخيرًا، العمال يعانون ترددك.

احتقن وجهه الصغير وهو يصرخ: أنت الفاشل الوحيد هنا، اخرس وإلا سأطردك.

لثم الرجل شفتيه وهو يحاول أن يكظم غيظه يحرك الأداة الخشبية بيده يصارع صبره بألا يفتح رأسه الكبير بها ثم قال بنفاذ صبر:

_أريد حسابي، وحساب عمالي وسأغادر.

صرخ القصير بانفعال طفولي:

_افعل أريدك أن تغادر.. غاااادر

تأمل الرجل انفعاله بسخافة ثم قال:

_حسنًا سأفعل أعطني مستحقاتي.

أردف القصير بنفس الطفولية: لم تكمل العمل المطلوب منك بالأساس لتسأل عن مستحقات!

قال الرجل وقد تمكن منه الغيظ والغضب:

_أنت تفتري علي، لقد قمت بهذا العمل لأربع مرات قبل أن تعود لتغييره، مالي بنظرتك الثاقبة كل مرة! لقد قمت بعملي لأربع مرات يا رجل اتق الله

مد ذقنه وهو يغادر قائلًا:

_بمزاجي

صرخ فيه: مزاجك المتقلب هذا يؤذي غيرك، وغرورك يجعلك لا تعترف بخطئك أبدًا، موقعك يفرض عليك أن تتصرف بحكمة لا بتحكم وهذه قمة الحماقة

قال ببرود:

_أنت مطرود ولا حق لك عندي وستتحمل أنت وعمالك مصاريف العمل السابق الذي لم أوافق عليه، لا حق لك عندي بعد تعديك علي بل أصبحت أنت المدين لي

قفز الرجل من أعلى البرميل وأوشك على ضربه وهو يصرخ:

_تدينني لأني طالبت بحقي! يا ظالم

مر القصير بجانب الطبيب بلامبالاة بينما الرجل ما زال يصرخ ويشكو لذلك الغريب بقلة حيلة وتيه

_هذا الرجل غشاش ظالم يأكل حقوق الناس لن يرى رحمة الله أبدًا

توقف الطبيب مكانه يتطلع للعامل بأسف ثم اقترب منه وربت على كتفه قائلًا:

_لا تحزن، سأتحدث إليه.

سأله باستنجاد:

_هل تعرفه؟

أجابه على الفور بتنهيدة ضيق:

_يبدوا أن لا أحد يعرفه..... توكل على الله يا رجل ولا تقلق

ثم طمأنه بابتسامة هادئة قبل أن يستدير لإتباع القصير

_عبد الوهاب من فضلك لحظة.

توقف ذو الراس الكبيرة عند سماع الصوت يستدير لمحدثه بتساؤل فاقترب منه حتى توقف قبالته يحاول أن يتجاوز عن كل وصفها الخائب له بهز رأسه، وقف أمامه مباشرة فأظهر انكماشه عن قبل وهو يقول له:

_عفوًا من أنت؟

دس الطبيب كفيه في جيب بنطاله الأسود كالعادة وقميصه بنفس اللون الجاد وهو يجيب ليكمل صورته الجادة بقول:

_لقد رأيت ما حدث هناك، الرجل لديه حق عندك، لا يمكنك أن تتصرف هكذا في حقوق الغير، لا يمكن للمرء أن يتلاعب بالآخرين حسب مزاجه، بعمل أو أي من شؤون الدنيا وينصرف دون الرجوع لضميره، لا يصح أن تدعه يقهر على حقه وأنت تعلم أن لديه حق عندك وتتصرف على هذا النحو لتقهره على أمر لم يخطئ فيه

قال بلامبالاة:

_لا أحب الإلحاح

ثم أعاد القول بنبرة ثائرة يبرر لنفسه:

_الإلحاح يضجرني

تعلقت عيناه بالأكاذيب التي أطلت من عيني الشاب فحدجه بنظرة مستنكرة ثم قال بثبات:

_أنت تتعامل برعونة تجاه الآخرين، الرجل هناك يعاني معاملتك من شيء أنت مخطئ فيه بالأساس، كان بإمكانك الاعتراف وانتهى الأمر، إلا أنك تصرفت بجفاء غريب... لا بأس لديك نظرتك وقواعدك وكل هذا الهراء ولكن لا تؤذي غيرك... هذا هو الإيذاء بعينه ان تفعل الشيء الخاطئ ثم تجد له تبريرًا لترضي نفسك.

هتف به:

_ومن أنت لتهاجمني

أجابه:

_أنا لا أهاجمك، أنت فقط ترى أي توجيه هجوم لأنك داخلك تعلم أنك في خانة المخطئ.

قال غاضبًا:

_طريقته لا تناسبني

رد عليه بصلابه:

_وطريقتك لا تناسب مخلوق، منحت لنفسك حق الغضب، الانفعال والضيق والانفجار.. بينما أرغمته بتلاعبك أن يقع في بئر الحائر المتوسل لتفهمه في حقه وخطأك..هذه قمه الأنانية، حاول ليوضح لك خطأك لكنك تعاملت بمنصبك أنك الأقوى لا بإنسانية، مع أنك تبدو بشرًا! ، وطردت عقلك جانبًا... إن وجد! وأنت تعلم أن له حاجة عندك وهذا يضغط عليه للصبر عليك لكن أنت لم تفعل، بل فعلت العكس استغليت حاجته لتزيد الضغط، ثم تلفق له مشكلتك

ارتعشت عين عبد الوهاب توترًا بينما راقبه الطبيب بعيون تكومت فيها أحداثه الأخيرة بضيق وعبد الوهاب يفكر يبلع لسانه بتوتر لكنه ضرب رأسه بيده سريعًا وكأنه يعيد عقله لمكانه ليعيد التطلع له قائلًا بعد إعادة برمجة رأسه وجفائه:

_ومن تكون أنت لتقحم نفسك!

استولى عليه الضيق لآخره فقال سريعًا بنفاذ صبر:

_تذكر آيات؟

لم يفكر وهو يجيب بتخوف وكأنه سيقع بمشكلة قائلًا:

_ابتعدت عن الفتيات منذ فترة.

قال الطبيب موافقًا:

_أحسنت صنعًا

ومد بطاقته له وقال:

_إن تذكرتها اتصل بي، لا تقلق ليس ممن تتوقع أن يأتوا للانتقام منك بسبب أنانيتك.

كشر بوجهه أمام قوله فربت عليه الطبيب بيأس قبل أن ينطق سريعًا، يكره أن يضيف الأناني حرفًا آخر يضطره لنقاشه لحظة أخري...

****

داخل استراحة المشفى

تحرك على مهل وهو يأخذ خطواته نحوها تجلس هناك باستراحة حديقة المشفى، يقترب إليها بتأمل بينما تنكمش بمقعدها كالمسحورة تتطلع للسماء بشرود بملابسها الرقيقة تلتف بشال قطني أبيض بدا وكأنها تلتف بجناحيها..

ارتجفت لصوته الهامس:

_هل تراقبين روحك وهي تخرج!

تدحرجت دمعتها الساكنة بعينيها على وجنتيها وهي تعتدل إليه، تأملها بلطف

وهو يسالها: هل أجفلتك؟

أجابته بنبرة حزينة هامسة:

_أنا بخير.

قال قلقًا يعتصر لحالها:

_أعرفك عنيدة ولا تخبرين أحدًا إذا تألمت، أو ساءت حالتك، أو جاءك ديناصور وخطفك فلن تستنجدين

ضحكت برغم انفلات دمعتها وهي تقول بإرهاق:

_ماذا تقول؟

عيناه تدوران في فلك زوايا ملامحها اليائسة ودموعها الحبيسة، يشعر بالشفقة والألم فقال بصوت مبحوح:

_مقاومتك تعذبني.. فلتبكِ يا آيات.

تهربت من نظرته لثوانٍ بارتباك وعجز تهطل دموعها رغمًا وهي تجاهد لرسم الابتسامة هامسة بصوت حارق وشفتين ترتعشان ببكاء مكتوم:

_أنا! أبكي!!

اعتصر لأجلها وفاضت ملامحه بالكثير، تمنى لو استطاع ضمها لتشعر بالأمان، يدرك شعورها بالوحدة والعزلة والحاجة، الذي دفعها لتتوهم مشاعر تبقيها،

يقف أمام صمودها باحترام احتواها بنظرته إليها نظرة أكثر من كونها تقدير هي تجبره على منحها عاطفته

حاولت أن تبتسم وهي تبلل شفتيها تدير مقلة عينيها المتعذبتين بالمقاومة لا تقدر على منحه أي تزييف بنظرة أو كلمة

تدير عينيها نحو كل شيء ولا شيء، تتهرب حتى التقت بعينيه أخيرًا فانفجرت كطفلة تبكي بنحيب مفاجئ تتقاطر دموعها فوق شالها بكثرة حتى باتت لا تعرف كيف تتوقف

اعتلى صوتها وشهقاتها المعذبة تخرج بوجع تترك نفسها لطوفان البكاء الحار تتلاطم هنا وهناك باستسلام

يتأملها بغصة، يترك لها حركة التحرر من كبتها الرهيب وإحساسها الحبيس وهو يمسك شالها بين كفيه ويظلل به محيطها بمنحها السرية الوهمية بإخراج ما هم بروحها

أخذت بالنحيب الحار حتى وصلت لنشيج مكتوم تسعل خلاله بحرج تعود لموطن الخوف فتخفي وجهها عنه وهي تشد منه شالها لتخفي وجهها فيه وهي تتخلص من باقي ما تحمله قلبها من أسى

أغمض عينيه للحظات أمام انهيارها وحرجها كم باتت صادقة على نحو نزع قلبه فحاول إعادته لمكانه ولكنه لم يصلح له فقد تضخم بالألم.. فسلم نفسه للمقعد يجلس بجوارها غارقا بنفس إحساسها الموجع يهمس بحشرجة:

_أنا أشعر بك أكثر مما تظنين يا نطفة الصدق.

توقفت عن النحيب أمام أثر جمال عمق لقبها وهي تستمع إليه دون أن ترفع وجهها وهو يضيف بدفء:

_أنتِ تائهة، فقط تريدين الخلاص، تظنين أنك عبء حتى على نفسك ولكنك ليس كذلك أنتِ جميلة بقدر يصعب علي تخيل اختفائك، ثمة ميزة باختطافك.. هل وجدت مرة شيئًا قبيحًا ينتقي أولًا!

أشرقت ملامحها برغم ما مرت به وهي ترفع وجهها تتطلع إليه بصمت.. تسلي بهذا الإشراق وهو يقول:

_ولكن لا تنسي أنك فضحتينا

تلون وجهها بالحرج وعادت تخفيه بشالها فضحك وعاد يتأمل أثر إشراقها وهو يضيف:

_آيات المميزة بكل حماقتها

غاصت بابتسامته الساكنة المشرقة إلى أن تحولت فجأة لغروب وأعاصير

عند قولها:

_هل التقيت عبد الوهاب؟

هتف منفعل بتهكم:

_الوسيم! ذو الابتسامة الساحرة! والعيون الخاطفتان! والطلة المهيبة!

شعرت من نبرته بشيء ما فمطت شفتيها بحيرة لكنه بدا مغتاظًا وهو يردف:

_التقيته.

انتظرت أن يكمل باهتمام تتلهف قوله التالي لكنه قال قولًا واحدًا

"الذي لا يعرف ماذا يريد لا يعرف الحب."

فكرت قليلًا بملامح لم يعرف ترجمتها ثم جففت أثر دموعها وتراجعت بمقعدها على نحو أدهشه كما لو كان أراحها وهي تهمس:

_إلى الجحيم.

وارتاحت أكثر تضيف بقرار:

_قد تعشق قلوبنا الخطأ ولكن من الخطأ أن تظل تعشقه.

ابتسم ابتسامة رائعة معجبة وهو يتراجع بدوره عاقدا ذراعيه أمام صدره بارتياح

ليقول:

_التالي

قالت سريعًا بدفاع قبل أي تعليق منه تعزز موقفها:

_هذا قال لي أحبك.

ارتاحت ملامحه وهو يقول:

_وأخيرًا.

قالت بضيق:

_تعني وأخيرًا أحبني أحدهم!

أجاب:

_بل وأخيرًا وجدت شخصًا سويًا يختصر التعاقيد.

قالت: هو قال لي أحبك ولكن

تراخى وهو يقول :خفتي.

قالت:

_أحسست بمشاعر ولكن هذه المشاعر كانت تطلب مهاتفتي وخروجنا سويًا وبعض الأمور التي لا تصلح.

سألها وماذا حدث؟

همست بحرج: غادرني.

هتف: "بل غدر بك... هو لم يحبك، مجرد كلمة تقال هكذا بعض الشباب يجدون منها بطاقة مرور، إن مررت أخذت كل ما أحتاجه وإن لم أمر تلكأت وغادرت.

قالت بثقه: لا أظنه كذلك.

تجمدت نظرته وهو يقول بجدية:

_أنت تحسنين الظن بالناس كثيرًا، برغم تخوفك وهذه مشكلة كبيرة.

همست مفكرة:

_بدا صادقًا

قال:

_ومن غير صادق بالنسبة لك!

دافعت:

_إذا أردت أن تنسى أمره فليكن، أنا حتى لا أذكره.. تعلم ما مر قليلًا، قد يكون هذا سبب أهميته الوحيدة.

همس بتفهم:

_لأنه قليل.

ثم تنهد من أرجائه وقال:

_أرجو أن تفيديني أكثر عنه فأنا أنهك كثيرًا في مسألة إيجاده.

قالت:

_هذا لن تبحث عنه.. إنه ثابت في مكانه منذ زمن.

سألها:

_أخبريني بصدق... هل تنتظرين أحبك مره ثانية منه؟

طافت نظرتها نحو لا شيء لتقول:

_لا أعلم.. فقط من الجيد أن يجد المرء من يحبه بالنهاية.

قال مستنكرًا:

_لئيمة تريدين من يبكي عليكِ بحرقة.

قالت: ولمَ لا؟

ضحك وقال موافقًا:

_سأوفر لكِ ذلك.

وشد قامته مغادرًا تتبع خطواته تفكر في قوله لتهمس أخيرًا:

_فقط أرغب أن أبكي من السعادة لا أن يبكي أحد من الحزن.

****

داخل مستودع كبير للبضائع

تابع حركة العمال حوله يتحركون بنشاط بينما يضع كفيه في جيب سرواله الجينز الأسود وهو يسأل المتأهب للإجابة أمامه قائلًا:

_ولمَ يصرخ فيكم دون أسباب؟

أجابه بمقت: هذا الرجل منافق كبير، يحب أن يتقلد مكانة صاحب العمل وهو مجرد مراقب، وعندما يأتي صاحب العمل يتحول لقط أليف.

قال له:

_هذا شيء عادي، الجميع يفعل هذا، أخبرني هل تعرف شيئًا عن حياته الخاصة؟

لوى شفتاه وهو يفكر قائلًا: ولمَ تسأل؟ ظننتك أتيت تبحث عن عمال لمشروعك.

وأضاف لاعنًا:

_اللعنة على هذا الرجل، كم مرة يخدعني هذا... اذهب إليه، اذهب وتحدث معه...كم مرة يهرب وتتبعونه إلى هنا أرجو أن يقتل مرة بسبب أنانيته وأفعاله الدنيئة

تابع بتساؤل العامل وهو يفر من أمامه يطلق السباب في استهجان، فقرر سريعًا وهو يتأفف من الحرارة بالمكان يقترب من ذي الوجه الأحمر بعضلاته المفرودة خلف قميصه الضيق، يتطلع للحيته السوداء الكبيرة حتى بادر ذلك الأخير بسؤاله وهو ينفخ صدره:

_كيف أساعدك؟

قال الطبيب: أتيت بشان بعض الأعمال وسألت عنك، قيل لي إنك أفضل من يفعل.

انتفخ صدره أكثر وهو يجيب بتكبر:

_بلى أنا قديمٌ في تلك الأعمال، تريد نقل بضاعتك أما

قاطعه: أريد معرفتك أولًا.

انفرجت ملامح الرجل، وأحس بأهمية الاتفاق فقال:

_يعجبني هذا

ثم أشار له قائلًا سجل رقمي، سيكون هذا بيننا وسأكرمك بعيدًا عن صاحب العمل.

عقد الطبيب حاجبيه بعدم فهم ومن ثم اعتدلت ملامحه باستدراك وهو يقول: اها
_فهمت، أعطني هاتفك لأكتب لك الرقم .

ضحك الرجل بسماجة وقال:

_وما يدريني أنك ستركض به إن سلمته لك، أعطني هاتفك أنت.

حملق الطبيب فيه قائلًا:

_هل أبدو لك شخصًا سيركض بهاتف بأزرار بينما أحمل آيفون.

هتف وهو يمد له الهاتف:

_أزرار لكن خطير ولكني أتحدث عن هذا

وأخرج من جيبه آخر أكبر من الأول لامع يلفه بغطاء بلاستيكي سميك فيه جدار مائي تلف فيه الاسماك الفل الصغيرة بشكل شاذ عن طبيعة الرجل الغليظة فاخذ يتبادل نظرات الحيرة بينه وبين وجهه يتساءل بإلحاح لمَ يحمل اثنين! ثم قال

010

قاطعه بمرح بدا سخيفًا: ولكني لا أشحن، ليكن لديك خبر ستتصل أنت.

رغبة ملحة في ضربه بهاتفيه والذهاب ولكنه تحامل وهو يقول برزانة

_بالطبع سأفعل.

قال الرجل:

_حقك، فأنت تبدو ثريًا، الله يسهلك أمورك ويعطينا مما أعطاك، وماذا يفرق معك بضع جنيهات لشحن الرصيد، أنت تحمل آيفون لا يقل عن ١٠٠ الف وهناك سيارة تركن بعيدًا مثل العروس لا شك أنها لك وأنا أخشى أن تهرب بهاتفي الذي أخشى أن ألوث شاشته باللمس! هه، لكن غدًا سيصبح لدي شركة خاصة وعمال تحت أمري وسكيورتيس و

_توقف.. ماذا قلت؟

هتف يوقفه بانفعال بكفه فتراجع الشاب يعيد بعدم فهم قوله: شركة خاصة

هتف الطبيب: ليس تلك.

همس الشاب: عمال؟

نظر له بغيظ فأردف بتساؤل: سكيورتيس؟

ضرب الطبيب كفيه ببعضهما وقال: هي تلك، فسرها، لا بأس بكل ما قلته ولكن لن أمرر هذه.

لم يفهم الشاب وهو يقول:

_سيكون لدي سكيورتيس.

قال له:

_ما هو السكيورتيس هذا.. اسمها secretary

قال متحسرًا:

_حتى بالتعليم هناك فرق، مدارسكم يعلمون بطريقة سليمة مدارسنا لم ندرس الفرنسي إلا بعد أن نسينا الحروف A B C

لم يعد يصدق ما يسمع وهو يتمتم:

_فرنسي؟

وأغمض عينيه يحاول تمرير ما تخبط له عقله ليقول بالنهاية:

_حسنًا

وأخرج له بطاقته قائلًا:

اتصل على الرقم المكتوب هنا فقط اتصال وأغلق، وأنا سأعيد الاتصال بك.

واستدار ليغادر وهو يهمس محدثًا نفسه:

_قال لها أحبك.. لا شك أنه السبب في انهيار صحتها.. إنه الورم شخصيًا

وركب سيارته وهو يتمتم:

_يا ستار

****

داخل كافتيريا هادئة مطلي جدرانها بالبرتقالي بشكل مبالغ فيه يجلس الطبيب وهو يتطلع للشاب ذو العضلات قائلا باستعجال:

_سأتحدث معك مباشرةً لأنه ليس لدي وقت للأسف فهناك مرضى بانتظاري.

قال يتقلد الأهمية:

_وأنا أيضًا ، لكن الله يعينك، عرفت أنك طبيب من بطاقتك، طبيب لك مكانة كبيرة، يسهلك.

ضحك الطبيب هذه المرة قبل أن يقول:

_لمَ تتصرف على هذا النحو، هذا يظهرك كضعيف وأنت لست كذلك.

قال ببساطة يجر خيط تظاهره:

_أنا على باب الله

قال الطبيب:

_كلنا على باب الله يا أخ ممدوح ..ولكن لا تتعود الشكوى فيصيبك الفقر ولا تتصرف بضعف ... فتجلب المذلة

قال له بدفاع:

_ولكني لست بفقير، أنا أعرف كيف أجمع المال، ولدي بيت باسمي ورصيد في الفيزيا

لوى الطبيب شفتيه يتطلع له بصمت، ولكنه تجاوز قائلاً بلامبالاة:

_حسنًا

حاول أن يتجاوز ما يحدث، يسيطر على ضجره ليعود لموضوعه قائلًا:

_لديك بيت وعائلة إذن؟ .

أجابه ببساطة:

_عائلة متفككة، لا تسمن ولا تغني من جوع.

تأفف بضجر لمدى الشكوى في أسلوبه ليعيد صيغة سؤاله:

_زوجة وأطفال؟

أجاب:

_سهل أن تقولها ولكن من يتحمل تكاليف الزواج! تحتاج نصف مليون حتى تأتي بيتك امرأة ثم تأتي للدنيا بأطفال من أول أن يوضعون في بطنها تبدأ المعاناة مصاريف كشف ورعاية وكل يوم عند طبيب حتى يأتي للدنيا فإن أتى بدأت المأساة من أول أن يرى النور تبدأ الطلبات الطفل يريد، يلزمه، يحتاجه ... الله يرحم نساء زمان لم يروا الطبيب إلا في تقرير الموت

قال الطبيب بنفاذ صبر:

_يعني هذا أنك غير مرتبط

ابتسم بخبث وقال بتعالي:

_ومن يستطع! في هذه الدنيا المقرفة من الضروري أن تجد من يهونها عليك.. فتاة هنا وأخرى هناك، كلمة حلوة ضحكة عناق و

قاطعه بجدية:

_إذن أنت تتلاعب

هتف:

_أعوذ بالله.. بموافقتهم يا أخي.

قال له يواجهه:

_وماذا عن وعد أحبك!.

تهكم:

_أصبحت وعد، سبحان الله

وعاد ليسترسل بمزيد من التهكم والعنجهة:

_أصبحت قديمة هناك ما هو أحدث لكن الفتيات يحبونها لا أدري، ثمة حماقة تشترك فيها كل النساء تسمي هو يحبني طالما قال أحبك.

تحطمت آمال الطبيب وهو يستمع له بينما يردف بثقة:

_سأخبرك أمرًا عن النساء إنهن مستعدات لفعل أي شيء في سبيل وهم الحب.. نحن الرجال لا نرى من القاعدة هذه إلا باب وحيد وهو إن حان الوقت فأهلا بالزواج غير هذا فالقلب مفتوح طوال العام.. باستثناء بعض المعقدين.. الحقيقة ابدوا منهم أحيانًا اذ أردت الفرار من فتاة..

قال الطبيب وهو يجاهد للتماسك:

_ولكن هذا خاطئ

دافع ممدوح ببرود:

_يا أخي أخبرتك لم أجبر أحدًا ثم حاشى لله في أي تجاوز من أي نوع، قليلًا من الحب لن يؤذي

طافت نظرة الطبيب في الوجوه حوله وهو يقول:

_إيذاء المشاعر لا يقل جرمًا عن اعتداء الجسد بخدعة الحب

قال يهز رأسه برفض:

_لا أعرف كلام المثقفين هذا، الكل يرغب بالقليل، وما أعرفه أنني لا أفعل الحرام ولكني بشر...لسنا ملائكة.. أنا اقترب امنحهن ما يحتجن، لا يوجد خدعة أنا لا أقترب من امرأة إلا وكان لها شيء داخلي، رغبة فيها... وذلك كافي لأن يكون حقيقيًا، أنا لا أخدع أحدا... ثم أن الجميع ينسى لا أحد يموت يا اخي الطبيب ،هل رأيت يومًا مريض أتى إليك بشكوى الحب والهجران، فقط هذا بالأفلام، الحب وعذابه... أنها تضحكني، ثم دعنا من كلام النساء هذا وأخبرني عن اتفاقات الرجال بما أفيدك وما هو نصيبي

شد قامته وقال بيأس:

_هناك من صدقك بينما أنت تلهو، وهذا قمة الجرم. كانت..

وتوقف قبل أن يضيف بتراجع:

_آيات، لا اظنك تذكرها وإن فعلت فمعك بطاقتي.. عذرًا على وقتك الثمين.

وغادر المكان بخطوات منفرة بينما يراقبه في ضيق متمتمًا:

_جرم! آيات!

****

في حديقة المشفى بالمساء

_منذ متى أصبحت تحبين مراقبة النجوم!

هتف بسخرية يتطلع لنظرة عينيها نحو السماء المظلمة بنجومها المشعة في حديقة المشفى الهادئة يجلسان في زاوية هادئة على إحدى المقاعد الخشبية تحيطهم الزهور التي زهت برغم الظلام فبدت أشبه ببستان رائق.. يبدو أن مظاهر الاهتمام في المشفى لا بأس بها وهو يبتسم يستنشق عبير المكان يعتدل عند قولها:

_هي صديقتي.

اتسعت ابتسامته وهو يتربع جانبها يتأهب لسماعها.. فأردفت:

_لم أكن أملك رفقة في الحقيقة أنا صديقة جيدة ولكن لا أدري لمَ لم أكن أملك صديقات مثل ما يقولون دومًا(لا نفترق) (نضحي من أجل بعضنا)،(نفعل الأعاجيب)، والخ أظن هذا خيال كذلك وإن حدث فقليلًا يكون هذا كما يتحدثون عنه

قال موافقا:

_صداقات الفتيات مرهقة لا أعرف كيف يتحملن بعضهم نحن الرجال أسهل تعاملا

ضحكت وقالت:

_بلى، لا حقد لا غيرة لا تفاصيل.. على الأكيد أسهل لكن مملة

همس لإغاظتها:

_تشبهك.

ضحكت حتى سعلت فقال:

_بالله لا تموتي الآن.. وأكملي، أحب سماعك

قالت بصدق:

_وأحب أنك تحب سماعي.

قال بتعالي:

_الفراغ فقط

عادت تضحك ثم قالت:

_شكرًا للفراغ

قال بمرح:

_أراك اليوم أفضل لذا اسمعيني صوتك، لم أسمع اصرخي بهذا، الجميع يصرخ للتنفيس عن نفسه

قالت :بلي اسمع اصوات احيانا

فقال مشجعا :الصراخ ام الكبت

شردت قليلًا بملامح مفكرة

ثم هتف:

شكرًا للفراغ

قال لها مشجعًا: اصرخي لن يستمع إليكِ أحد، نحن بالحديقة الخلفية نبعد عن المبنى لا تقلقي

أحبت فكرته وتمهلت قليلًا تستجمع قوتها ثم صرخت:

_شكرًا للفراغ

ازدهرت وراقت الفكرة لها فعادت تصرخ:

_شكرًا يا الله

صاح مثلها مشجعًا أكثر:

_شكرًا للمشفى

صاحت:

_شكرًا للمرض

صرخ:

_شكرًا للقدر

صرخت:

_شكرًا للسماء

صرخ:

شكرًا للزهور

صرخت:

_ شكرًا للهواء

صرخ:

_شكرًا للأرض

صرخت بصوت مبتهج:

_شكرًا لك أيها الطبيب المرح

ضحك وصرخ بدوره:

_شكرًا أيتها المريضة الكئيبة

تشاركا الضحك إلى أن انتهت بنظرة دافئة يغمرها الأمان .

تصافت ابتسامتهما ليهدأ المكان تقطع الصمت بصوتها الساكن وهي تقول:

_بعد وفاة والدي، لم تتحمل والدتي بيتنا كانت دومًا تصرخ هذا البيت الملعون،

عبست ملامحه عند ذكرها لأمها وهو يسمع بينما تردف:

_وتقسم أن الفقر شخص يدور بالبيت وهذه كانت حجتها للفرار، أمر أشبه بأن البيت مسحور وليس بيدها شيء، هناك من يدفعها نحو التخلي، لا يمكن ان تلومها هي معذورة...

وهمست كأنها تخبره أمرًا جللاً تضيق له عيناها:

_مسحورة

وأطلقت ضحكة مكتومة متهكمة وهي تستأنف حديثها بإحساس يملؤه الضيق:

_كنت قد أنهيت الثانوية ولم يعد بإمكاني العمل بدكان الحج مبارك البقال قال إني كبرت وأصبحت عروسًا ولابد أن أجد عملًا يليق بي في مكان آخر، أظنه خجل

أن يخبرني أنه لم يكن في استطاعته أن يعطيني راتبًا يكفي مصاريف جامعتي والتي كنت وقتها أستعد إليها، الحقيقة فكرت بتركها ولكني خشيت إغضاب أبي في تربته هو وصاني أن أفعل قال شهادتك يا فتاتي

بالصدفة وجدت عملًا والحقيقة كنت في الثامنة عشر ولم يكن هذا يسيرا أبدًا

شعرت وكأن صوته يتخلل ذاكرتها وهو يسألها:

_ماذا حدث

أجابت بمقت:

_صاحب العمل لم يكن شخصًا سويًا، كان يتحدث عن مرض زوجته ويشكو منها، كان يقول أنها لم تعد تصلح... كيف للمرء أن يكون بهذا النقص!

هنا لاح بذاكرته لقاؤه بممدوح فتمتم بضيق:

_الادعاء والتقلب صفات نقص

بدت لم تسمعه، وتطلعت إليه تشكو أمرًا مؤلمًا

كنت أراه أبًا، حتي قال لي أنا معجب بكِ!

وأردفت بأسف:

_يومها لم أننطق شيئًا فقط استأذنت وغادرت ولم أعد

همس بضيق:

_كان يتحرش بكِ.

قالت:

_لا أعلم فقط كان يجلس طول اليوم مبتسمًا

تمتم بغضب:

_حقير

تنهدت من أرجائها وقالت:

_لم يمسسني رجل، وأكره نظراتهم.

قال ببساطة:

_معقدة!

ابتسمت لنظرته الدافئة المرحة المطلة من عينيه كعالم آخر اختص فيه حتى بادلها الابتسامة تبرق عيناها لتقول بتمني وشغف:

_ولكني تمنيت تلك الضمة المليئة بالمشاعر.

همس بتشجيع: "واو"

تلونت وجنتيها وهي تضم شفتيها وكأنها وقعت بلسانها على سر خطير لتخبئ وجهها بكفيها بالنهاية وهو يراقبها ضاحكا قائلًا:

_أكملي يا أميرة المفاجآت.

التقته نظرة لوم فقال:

_لا بأس كلنا لدينا نفس المشاعر.. ولكن إن استهلكت لغير أهلها... بهتت.

تغيرت ملامحها للإحباط وهي تقول:

_إذن قابلت ممدوح.

قال:

_أف يا إلهي، لمَ تذكريني؟ لقد مررت بحياتك لأيام وأشعر أني أريد التقيؤ.

تمتمت:

_أنت فظيع

لم يبالِ وهو يقول:

_هذا الشاب خطير جداً على البشرية.. تخيلي هذا يتكاثر ويخرج منه نسخ شبيهة يا إلهي، إن لم أكن درست علم النفس لآمنت أن هذا الشاب ملاك، في الحقيقة غشاش بصورة مثالية، له أكثر من وجه، لا أبالغ صدقيني، أنا أفهم أكثر منك في هذا، هذا الشاب لا يصلح لامرأة جيدة إطلاقًا، سيرهقها انه يستحق أخبثهن، سيتوافقان ، ستكون مناسبة جدًا، أرى من العدل أن يتزوج الشر بالشر والخبث بالخبث والكذب بالكذب والخير بالخير، سنغلق أبواب المصحات النفسية، سيتعاملون،

قالت معارضة:

_سيحدث خلل، التوازن لأجل الأطفال، لابد أن يكون أحدهما صالحًا.. تخيل لو أبي كان مثل أمي!

قال بحدة:

_لا يختلف، هرب كذلك

هتفت بدفاع:

_والدي لم يهرب، لم يتركني قط، لم يدعني لأي سبب، حتى اختطفه الموت

هتف بعبوس:

الموت لا يختطف أحدًا

احتدت نظرتها وهي تقول:

_يبدو أن مرورك بعالمي الذي يدفعك للتقيؤ أثر على عقلك وحكمه فبدأت تخلط بين أفراده بقول لن أسامحك فيه أبدًا

صمت ولم يرد أن يزيد بل وغير الموضوع بأكمله وهو يقول:

_هذا الشاب الذي التقيته، يبدو بسيطًا لكن إن أمعنت النظر ستجدين أنه علة.، يجد من شكوته وضعفه قوة يتحدث بها، هذا مثير للشفقة، يذكر مشاكله ثم يدعي أنه يرضى، يشكو ويشكو وإن وجد أفضل منه شكر بذاته واختلق أموراً، يغار غيرة كحد السيف تذبح من أمامه، وحقود حقد جبال ممتدة، ويدعي أنه في حاله، ملاك أُنزل للتو، يقسم كذبًا، حديثه نفاق، ويدعي الأخلاق، ويصدق نفسه!

هذا ندعوه سيء الطباع، متقلب، ولا يحترم مشاعر أحد، منافق عظيم ولديه علاقات بعدد شعر رأسي ورأسك ويدعي النبوة.

ضحكت رغمًا عن ضيقها، وتفاجأ عندما همست:

_أعلم

أراد ضربها ولكنه صمت بغيظ حتى أستسلم أمام ضحكتها فعاد يضحك وهو يقول بأسف:

_من الجيد أنك اعتدت أن تحولين مأساتك لضحك.. فهذا يقتل.

وتمتم بتعجب:

_هل كنت تنتقين من المجاري!

زمجرت بغضب ولكنه لم يعتذر وهتف:

_أملنا في الأخير

هنا هدأت بغتة حتى استشعر جديتها يترقب قولها

فأباحت:

_قد أكون بالغت في كل ما مضى أو كانت محاولات لأن يتحرك قلبي حتي أتى هذا فاختطفه بأكمله.. نضجت وعقلت وهدأت وأدركت الاكتمال حين التقيته... اتفقت فيه روحي بعقلي بقلبي فنبض جميعهم إليه.. ولكنه جاء الأخير ولم اذكره بدايةً لأني

أجاب عنها: انتقصتي من ذاتك فتمنيتي له الأفضل..

ابتسمت وقالت برفق: كان هذا صادقًا.. لو يعلم

تحمس من خلال كلماتها وسألها:

_كيف هو؟

أجابت قولاً واحداً:

_هذه المرة لن أحكي عنه اكتشفه أنت.

سألها موافقا:

_ما اسمه؟

_هيثم عبد الله

****

ابتسمت لها الممرضة الجميلة بحب وهي تهمس لها عن قرب بينما تستلقي بفراشها مغمضة العينين في سكون تستمع لآيات الله عبر قناة القرآن الكريم....

_أصبحت أردد الآيات وأنا أمر أمام غرفتك، لقد حفظت منها

ابتسمت لها دون أن تفتح عينيها أضافت الممرضة

_هذا يطمئن قلبي كثيرًا

أسر قلبها بلوغ حالتها من الضعف فاكتسى وجهها بحزن مفاجئ وسريعًا أنارت ملامحها بلمسة حانية وآيات تلمس كفيها هامسة بإرهاق

_لا تتوقفي...أرى في صوتك محبة

تكومت دموعها وهي تتأمل حالتها وآيات تضيف بامتنان:

_قلبك نقي

انفرجت شفتاها تسقط دمعتها المتكومة لتقول بمرح:

_أحببت حجابك

ابتسمت بدورها لتقول بمحبة شقية

_الحشمة من شيم الملوك... ونحن كذلك

همست لها واعدة:

_سأفعل

ثم تأملت محياها وأضافت:

_أنت جميلة جدًا يا آيات.

قالت بهدوء:

_كل منا يرى انعكاس قلبه.

ضمت كفها وهي تقول:

_أقسم لكِ أنني أدعو لكِ في كل صلاة قربتني إليها، أحببتني فيها.. أحب صلاتنا وحديثك... لم يعد هناك مكانا للحزن والكآبة.

ولامت نفسها وهي تتمتم: لا يجدر بي قول هذا وإضجار كما اوصاني

وضاق صدرها بغصة بكاء وهي تكمل بحزن رغماً عنها :

_لا أريد وداعك

حاولت آيات التماسك تتجاهل إحساسها بالألم لتهمس بمرح:

_لو جاء دكتور أحمد الآن سيضربنا.

ضحكت الممرضة ثم قالت:

_أتوسلك أن تتماسكي فإن غادرتِ غادر، أحب رؤيته كذلك، إنه رائع...سأخبرك سرًا.. جميع الممرضات أسرن به.. لولا أنه خاطب لتقدمت له.

قالت بأسف ضاحكة:

_للأسف، ولكن هناك حقيقة تقول.. سيظل الرجل رائع حتى تتزوجينه.

قالت بولع:

_إنه وسيم جدًا

علقت قائلة:

_ليس العبرة في وسامة الرجل، بل في صدقه.

تنحنحت الممرضة قبل أن تقول بتردد: ألم تخونك نفسك وأحببته؟ مثلنا إعجاب وهكذا، أعني أنكما منسجمان، كما إنه لم يدعك، لم أرى سواه جانبك دون ملل، يسعي جاهدًا لأجلك.. هذا كافٍ لتخونك نفسك وتفعل.

فتحت عينيها تجيبها بسكون غريب:

_حبه ليس خيانة لنفسي...ولكنه ليس ذلك الحب الذي تقصدينه.

وشردت قليلًا قبل ان تستكمل حديثها بنبره دافئة:

_أنا لا أعرف عنه إلا اسمه، وأجهل كيف أصبح بهذا القرب، هناك أشياء لا تشرح كهذا شعور، أن تجدي كل شيء مكتمل دون أن تحتاجين للسؤال والتحري لتطمئني مخاوفك.. أنه مكتمل كافٍ.. أخشي أنني سأغادر دون أن يدرك أهميته لروحي.. هو يكترث لأمري، يعلم كل شيء وهذا دفعه للوجود وأنا لم اسأله شيء عن نفسه مؤكد يظن أننا لا أبالي ولكن وجوده يغنيني يبدوا كافيًا.. يجعله واضحًا مكتمل.. أليس من الرائع أن ترتاحين لشخص في عالم مخيف غير آمن دون شيء...

قالت لها:

_هو سيتفهم... لأن ما تشعرين به.. نقي.

****

داخل سيارته، السوداء

"هيثم عبد الله"

توقف فجأة عن كتابة الاسم ينزع الورقة من دفتره ويلقيها من نافذته ثم يرمي القلم أمامه على صندوق السيارة في عنف وصوت متهكم يضرب ذاكرته

_ما الذي تفعله، تطارد الرجال!

ازداد احتقان وجهه وذلك الصوت يردف كصواعق تضرب رأسه

_أتساءل عن دافعك لفعل هذا يا رجل!

_هل تبحث عن آخر ليحمل كارثتك؟

اشتعلت عيناه بالغضب عند هذا الحد

يعض شفتيه المرتعشتين بالقهر

يتذكر نظرة ذلك الوغد وهو يضيف له باستهانة:

_"آيات المسكينة لطالما أشفقت عليها، لكن هناك فارق بين أن أشفق عليها وأن أحبها، كذلك أنت ماذا تفعل بنفسك؟.. ما دافعك للقدوم؟.. الشفقة كذلك؟

حاول تمالك أعصابه يتجاهل ذلك البريق المتألم الذي طفا بعينيه وهو يتنهد بينما يشغل محركه هامسًا بغضب:

_أيها الرخيص الدنيء

وتلاشت كلمته الأخيرة مع انطلاقة كالصاروخ ثم توقف فجأة تطلق السيارة صريرًا حادًا ثم أخذ يضرب على المقود أمامه وهو يصرخ بانفعال ثائرًا:

_تبًا تبًا تبًا

هدأ للحظات يفكر، يحدق في اللاشيء أمامه يتذكر ما حدث قبل دقائق بمكتب ذلك الشاب المغرور، يتساءل كيف لقلبها أن يخفق لشخص بهذا الرخص وكلماته تجلد ذاكرته

_"كنت أحب نظراتها لي، تبدو شيقة محببة، لذيذة، تلك نظرات الحاجة إليك، رسالات مرضية ذكي، طيب، شهي، تنصب في رغبة واحدة.. أريدك."

وأطلق ضحكته الواثقة وهو يضيف:

_"وكنت أستمتع بهذا كثيرًا"

واستكمل حديثه بأسف مبطن بالخبث:

_"يؤسفني أنها لم تكن امرأة كاملة، ربما كنت سأختارها.. تعلم ما يحتاجه الرجال..

قال له بازدراء:

_تعلم من الناقص!؟

ضحك مجيبًا:

_"لا باس أعلم، وأعترف أنا رجل مؤذي، أناني، أريد كل شيء .."

أغمض الطبيب عينيه يحاول تجاهل صوته برأسه قبل أن ينطلق مجددًا ثم توقف ليعود للخلف مقررًا عازمًا أن يوقف ذلك الصوت بيديه مهما كلفه الأمر

****

بالمشفى.. الساعة السابعة مساءً

أسندت رأسها لظهر مقعدها بارتخاء وهي تسأله بقلق:

_ما بهما كفيك

خبأ كفيه وهو يهز رأسه مجيبًا بثقل:

_مجرد حادث.

تأملت حالته، لم يكن نفسه ذلك الغريب المبهج، ذلك الذي يحيك المرح بخفة ومرونة، يكشف عن جمال لا وصف له، أحزنتها حقيقة أنه يأتي كل يوم يفقد حلقة من المرح واليوم منهزمًا بالكامل، تتجاوز إحساسها بالصبر إن عودته لحاله قريبة بمجرد تلاشيها فأغمضت عينيها تمرر الفكرة لتطلع له قائلة باهتمام:

_"لست من الأشخاص الذين يتم استفزازهم بسهولة"

حاول أن يستعيد نفسه بحركة حاجبيه وهو يقول:

_ماذا تعنين؟

قالت بأسف:

"انظر إلى نفسك، لم تعد ذلك المبهج المرح، صندوق البهجة، لقد أثرت عليك.

خلع الكاب أعلى رأسه يلقيه جانبًا بفتور وهو يجيب:

_" يا إلهي، فقط لا ينقصني سوى توقعاتك الآن.. كفى تذاكي...أخبرتك أنه مجرد حادث.

راقبته وهو يتحرك دون هدف حتى جلس قبالتها يحاول أن يخفي ما حال به

فقالت:

" أنظر بعيني وأخبرني أنه لم يكن بسببي.

تهكم وهو يتهرب من نظرتها:

_"وما المؤثر في الأمر لأعترف.. هما مصباحان منطفئان لا حياة بهما "

صمتت تقابل عينيه بعينيها اللتين سكنهما الحزن يحاول الإفلات من عمق نظرتها بنظرة مترفة ساخرة احتلت نظرته لها ولكنها لم تستطع إخفاء حسرته...

_"أنا آسفة"

انتفض قلبه وانسحب معها زيف الترف والسخرية وهي تضيف بصدق تسبح في عمق عينيه:

_" دون أن أدري كسوتك بالألم، أنا دومًا أكسو من حولي بالألم، أما يهربون أو أهرب أنا، لا نلتقي، ومن سوء حظك التقينا.

اكتست نظرته بمعاني النفي ولكنها أضافت باعتذار:

_" أنا آسفة جداً، لا أدري، تائهة، هل أشعر بسعادة أن يشعر بي أحدهم أم بتعاسة ما شعر به...دومًا كنت أرى من وحدتي آية .. إنه لن أؤلم أحد، واليوم أؤلم أكثر من تمنيت ألا يتألم .

طفت بعينيه مشاعر الدفء

وهو يسحب كفها الضعيف بين كفيه ليجيب حيرتها بقول:

_" ومن يمكنه إجبار أحد على البقاء إن لم تكن إرادته."

قوله بدا كافيًا لكنها سحبت كفها لتهمس بصدق ولهفة محببة:

_"لا يمكنك إمساك كفي، أردت أن يفعلها من يخفق له قلبي"

ابتسم لهذه الدرة الحالمة الرائعة أمام عينيه بل وأطلق ضحكة أنارت فيها مقلتيه لتصرفها وهي تشبك كفيها ببعضهما، تتمتم بتمني:

_" سيكونوا هكذا إلى أن يأتي "

تلاشت ابتسامته بغصة مريرة وهو يستعيد صراخ ذلك الشهواني:

_"هي مجرد امرأة تحتاج لهذا الشعور بالرغبة، لا تحول الأمر لأكثر من ذلك"

هب من مكانه فجأة فتطلعت بلهفة إليه تسأله:

_إلى أين ؟

أحب نظرة تعلقها وهو يجيب:

_"أريد الاغتسال وتغيير ملابسي، لقد أصبحت أشبهك للغاية"

هتفت به:

_ألا يمكنك أن تكون لطيفًا للنهاية!

ودعها وهو يقول:

_سأعود سريعًا.. لا تموتي

ظلت تتطلع لأثره بعيون طفلة تترقب أمها ، ضربات خافته تضج بموضع قلبها

تتمنى لو عاد.. تترقب طلته ليعود لمزاحه... لثوان ترقبت في لهفة لامت نفسها عليها ل تهز رأسها تتخلى عن الفكرة تعود للاختباء تحت فراشها من جديد ولكنها انشدت بكامل انتباهها فجأة عند انفراج الباب تبتسم دون وعي ابتسامة تحولت لذهول وهي تحملق في القادم هامسة:

_هيثم!!

انفرجت شفتا الشاب الوسيم القصير بابتسامة واسعة واثقة وهو يقترب منها قائلًا:

_بحثت عنكِ

تفجرت أساريرها حتى تغير لون وجهها وهي تقول بتلعثم:

_أنت حقًا! أتيت لأجلي. بحثت عني حقا.. حتى أخبرك طبيبي عني.. كنت تبحث، لم أكن أريده أن يفعل لكن

بلعت لسانها ونسيت ما ستقوله وفرت الكلمات من عقلها حين توقف عندها يتأملها عن كثب حتى استشعرت الحرج، نظرته وجهت ارتباكها نحو هيئتها، تفكر في حالها، يرعبها كونها تظهر بشكل غير مبهر، تتمنى لو استطاعت أن تتزين أن تكون بشكل أفضل...تتمنى لو غابت وتألقت ثم عادت بنفس اللحظة، تتذكر منامها الدائم، لطالما تساءلت عن معناه، ها هو، دومًا ترى أنها متأخرة، إنها ستفوت موعدها لأنها ليست جاهزة، تهمس برأسها (يا إلهي) تعتلي قمة رأسها فكرة أنها الآن غير كافية غير كافية له، إنه رائع ومحب، صادق كما تخيلته، يستحق من تبهره كما أبهج روحها، هو أتى لأجلها، هو لبى نداء قلبها، هو من كسر أبواب خوفها حين أتى، أتى حاملًا إليها الثقة بخفقات قلبه إليها، هو الحقيقة والصدق هو الحب.. هو الخيال والواقع

تخبط كل شيء برأسها وهي تتطلع له شاردة بعالم آخر فقدت فيه ثقتها واتزانها، كم خشيت هذه اللحظة من الواقع وكم رسمها خيالها والآن تقع شاردة بينهما بوجه باهت من الحيرة

جلس قبالتها يتأمل فيها بنظرة ثابتة غامضة، تدفع نفسها دفعا لتخرج من توهتها إلى واقع يجلس فيه قبالتها على بعد خطوات هم ست خطوات، قد سبق وحسبتهم

قال لها:

_لمَ أنتِ متوترة.. أتيت لأجلك. أنت تعجبينني

تصلبت ملامحها عند سماع قوله فأعمت رؤيتها لإصابة أنفه

ترد بصوت أوشك على الدموع:

_أعجبك!

اشتدت نظرته إليها بابتسامة عبرت عن الكثير، كم أحبت نفسها بنظرته ولكن هذا لم ينفِ خبر إرادتها أن تكون أجمل مما هي عليه، لا تدري لمَ تتشبث الفكرة برأسها بإلحاح، أفكار متلاطمة، ضربت رأسها... سندريلا تهيأت بفستان رائع أمام بائسة غير متألقة، ترك الحزن والإرهاق بصماته عليها، من الأفضل لو رآها متألقة، لو استأذن قليلًا لارتدت تلك الملابس الجديدة والحذاء الخرافي، كانت ستناسب لحظتها الأسطورية، هو يستحق أن تكون على نفس قدره، ثم تهاجمها موجة أخرى تشعر فيها بالرغبة في تقبلها كما تكون، من الضروري أن يتقبلها في أسوأ ظروفها في كل حالاتها لتحسم حقيقة مشاعره، إن الظروف هي الامتحان الأمثل لغربلة المشاعر الزائفة، ورغبة تقحم نفسها مجددًا في أن تفعل أي شيء لتناسبه، هذا حقه... أخذتها ابتسامته بهمسه الرائع ونظرته الراغبة وهو يقول:

_هل يمكنك أن تأتي بقربي أريد رؤيتك تسيرين نحوي

ابتهجت.. هو يرغبها.. هو يحبها نظرته تقسم.. رغبته في قربها دليل.. تقبلها وإلا لما رغب.. لمَ تخشى؟ لمَ تخاف الآن؟ فلتطرد الخوف خارجًا.. لقد أتى مجرورًا من قلبه كما تمنت، أتى دون إجبار.. لقد قال الطبيب ومن يمكنه إجبار أحد على البقاء إن لم تكن إرادته... لقد أتى ، هي إرادته، رغبته، هو يستحق الثقة

تمنت لو تقدم هو نحوها لا تدري، فاجأتها فكرة من زحام مخاوفها ماذا لو أتى أحدهم الآن ورآها تأخذ خطواتها إليه؟

أو هي تريده أن يفعل من أجلها هذا.. تقدمه إليها خطوة مبررة عن خطواتها إليه.. تتقافز من عينيها رغبة كانت حروفها

(أكد لي رغبتك بقربي، أنت تحبني فلتأخذ أنت خطوات لأجلي، أنت أشجع مني فشجعني.. أطرد الخوف من بيننا وسأمنحك ثقتي، افعلها، قل لي أنك واثق بقدومك بكل خطوة إلي، قل لي أن ثمة شيء دفعك لتأتي، هذا الشيء كافي ، كل ما أحتاجه الوجود... الصادق)

عيناها لا تصدق لا تدري فقط تريد قربه ولا تدري فقد قالت بارتباك أمام همسه المتلهف الراغب بالاقتراب:

_"اقترب أنت"

قالتها دون أن تحمل عبء أي أفكار قد تخالجه، من أتى فهو يثق ومن وثق لا يمكن أن تشكك بنواياه، نطقت برغبتها لا تفكر بباطنها أو لأنه لا يوجد مصطلح آخر يناسب رغبتها بوجوده، يكفي أن بدأ هو الاقتراح، لن تضع الخوف الآن بينها وبين حلمها يكفي ما فعله بها سنوات عمرها كله...

وفوجئت به على حين غرة يقفز إليها مأمورًا مجرورًا ويجلس على قرب.. قرب لم تتوقعه.. أدهشها قربه ولهفته نحوها.. أحبت وقلقت وذابت في لهفته إليها فمد يديه دعوة للحب تفهمت رغبة شع قلبها لها وهو يهمس:

_"أريد لمس يديك"

انتفض قلبها حبًا... قلقا يحاول الاقتحام.. توتراً تصارعه.. وتساؤلاً تهربت من إجابته. تذوب في زاوية حلمها. لقد تحقق الحلم معه.. ها هو أمامها. إنه حقيقة

كل شيء اختض داخلها، إنها المرة الأولى التي يجلس شاب بهذا القرب راغبه.. راغبا فيها تركت لكفيه العازمتين ضم كفيها الضعيفين بقوة تسرح في حقيقة تحقيق حلمها

ترخي كفيها الجافين بمشاعر القرب بين كفيه، تستسلم لإرادته الصادقة

قال لها وهو يضم كفيها بقوة لم يرتح لها عقلها ولكنها لم تصغ وقلبها يتراقص أمام حماسه فخشيت أن تفعل أي شيء يزلزل ثقتها به فيضرب كل شيء قد بناه القدر.. لا يمكن أن يكون هذا

سحبت كفيها والخوف قد انتصر وهي تقول:

_"وكأنني أحلم"

قال:

_أنا أريدك وفقط، أريد خطفك من هنا وأخذك بعيدًا لأجلي، أريد أن تشاركيني كل شيء بيتي وعملي ويقظتي ونومي، أريدك أنت فقط يا آيات، لقد اكتشفت مشاعري تجاهك بقوة وأريد من هذه اللحظة أن نكون معًا.. سأصنع لك كل ما حلمت به، سنكون معًا أنا وأنتِ فقط.. أنا سأعوضك عن كل شيء، ستتركين هذا المكان الكئيب وستصبحين افضل معي دون حزن او الم، انا أريدك.

تسللت دموع الفرحة من عينيها تغرق بأثر كلماته، وعودة وجوده يهمس إليها بحب:

_"امنحيني كفيك أريد هذا.

دون وعي تطلعت لكفها الباهت تفكر:

_هل هو بين كفيه جميل.. مقنع؟

أزاح أفكارها جانبا وهو يعود لخطف كفيها بقوة غريبة يضمهما حتى ابيضت عظام كفيها ويضيف:

أنتِ لي.

******

تسلل كالعادة لحجرتها يبحث عنها بوجه مبتسم، توقع التفافها كشطيرة الجبن بفراشها لكنه تفاجأ بوجه مشع وعينين تبرقان على نحو عجيب تقف جانب النافذة تتطلع إليه بصدر يعلو ويهبط، لا شك أنها تحمل الكثير لقوله، وقبل أن يسأل سارعته ببهجة:

_لقد أتى لأجلي، لقد أتى .

همس بتساؤل: من أتى؟

فرت دمعات السعادة من عينيها وهي تهتف بلوم:

_كان عليك إخباري بهذا، لأستعد كي يراني جميلة لكن لا بأس هو أحبني كما أبدو.. وهذا كل ما أردته.

عاد يسأل بجمود:

_من الذي أتى ؟

ضحكت ببكاء وهي تجيب:

_هيثم.

اختض جسده وشعت من عينيه نظرة مريعة مظلمة وهو يقول:

_جاء إلى هنا؟ اتبعني!

أخذت تهز رأسها غير مصدقة تتلبسها حالة الدهشة والسعادة، لكنه اقترب منها يتطلع لها بشكل مختلف وسألها بنبرة رهيبة وغريبة:

_ماذا قال لكِ، ماذا فعل معك؟

لم تفهم بل ظلت تحدق في وجهه الغريب وقلبها ينقبض بنظراته الغريبة فردت بتلعثم:

_ماذا تعني!؟

شعرت بأنفاسه تتصاعد وغضب يتلبسه لم تره قبلًا يتطاير بحروفه وهو يهدر:

_ماذا فعل؟

انكمشت مكانها بارتعاشة طافت بكل جسدها تبتلع لسانها، الرعب كان واضحا جليًا على ملامحها وبما لا يقبل الشك، تضرب رأسها الحيرة لمغزى سؤاله، ولكنها حاولت إنقاذ حيرتها بقول:

_لكنك أرسلته

تجمدت ملامحه فأضافت وهي تلهث بتيه:

_ألم يأتي لأنك أخبرته بمشاعري، وهو كان يبادلني تلك المشاعر، ينتظر ليتأكد، لذا أتى و

قاطعها بحزم:

_ماذا فعل؟

بانهيار صرخت:

_أمسك بيدي

استدار بزمجرة ثائرة وعينيه تموجان بظلام شرير أسود، لم يكن عليه قبلًا، يعض على أسنانه بغضب لا حدود له، يقاتل للتماسك، يتجمد مكانه وهو يوليها ظهره بقبضتين مضمومتين تركتا أثرًا في بطن كفيه من القهر بينما هي ترتعش مكانها لا تدري سبب تحوله، تقترب إليه تهمس خائفة ببكاء وحيرة بوهن واضح:

_ماذا فعلت ؟... أخبرتك أنني أحبه وأكثر من تمنيت قربه، وقلت لي أن هذا هو الحب حيث نضوجي وتناسبنا وأنك ستخبره مباشرة ولن تختبره.

ارتجف صوتها أكثر وهي تقول باضطراب:

_"وإن أتى فهو يحبن..

قاطعها هادرًا بجنون يستدير بلحظتها يواجهها وهو يقبض على معصميها:

_لم يحبك

شهقت بوجه ميت

هز جسدها وهو يواصل صراخه المدوي:

_أتى لاستغلالك يا غبية

دموع القهر انسكبت من عينيها وهو يضيف بنفس غضبه بلمحة مرارة تملكت نبرته الغاضبة:

_" أحببته ومنحتيه لمسة يديك الأولى ولكنه لم يكن المحب الذي تظنين، لقأتى لَ

صمت فرفعت عينيها المذعورتين تتساءل عن باطن قوله تهمس بارتياع:

_" يختبرني؟

هدر بصوت جهوري مرعب:

_بل يتسلى.

اتسعت عيناها بصدمة تنسكب على رأسها أكوام من الإهانة والمذلة تطحن روحها طحنًا بشعور التخاذل والانتقاص، تظلم عينيها ببشاعة واقع كشف عن ظلمته، فيرتعش جسدها الهزيل كما لو أصابتها صاعقة عرتها تريد ضم نفسها بنفسها تلملم مشاعرها التي انسكبت أرضا فتلوثت، بينما يمنعها وهو يقبض على معصميها يضيف ثائرًا:

_هذا الشيطان كان يتسلى، ولن يعود، أتى فقط ليزور فتاة تحبه وليذق بعضًا من عبيرها، لقاء كما يحب أن يكون، أتى إليكِ بنوايا لا تتخيلينها، بينما أنت ترينه بعين الثقة والحب والمثالية والنظرة الأسطورية الغبية خاصتك، وهو لا يراك إلا امرأة يحصل منها على لمساته الشهوانية القذرة

كان قوله الأخير كطعنة توقفت لها أنفاسها تحدق في لاشيء وجسدها يختض تتذكر لمساته، تكتشف معانيها بروح أخرى، بينما يهمس الطبيب بنبرة تذيب عظامها:

_أنت في نظره مجرد فتاة رخيصة

طنت أذناها تتطلع إليه بلوعة وإحساس بالغدر قبل أن تظلم الدنيا حولها، شعر بارتخاء ذراعيها بين قبضته وقبل أن تسقط تلقاها برعب حقيقي ....

****

بغرفة العناية المشددة

أخذ الإشفاق بقلب الطبيب لأقصى حد يتأمل وجهها المرتعب برغم غفوته، يتمنى أن يسيطر المهدي على ضجيج عقلها الباطن، فتقتلها أفكارها قبل أن تستفيق، يلوم نفسه على ما حدث يعاتبها بقسوة:

_لم يكن عليك كشف قذارته أمامها.. كانت ستغادر حاملة تحقيق حلم.. فيجيب ضميره:

_بل وهم

لا يمكنه أن يشارك في هذا لا يمكنه أن يساعده، لا يمكنه أن يتحايل على نفسه ويكمم ضميره بستر بشاعة نواياه

كي تحيا على وهم ولو لحظات

تنهد من أرجائه يتطلع لكفها المرهق من أثر تلك المحاليل

كفان رقيقتان بسيطتان عانا الألم من كل اتجاه.. بل عبرهما لمست بشاعة الواقع...

أحزنه انها تلقت صدمتها في روحها في قواعد حافظت عليها سنوات عمرها حتى لحظات موتها فأتى هو ليشجعها وأتى ذلك ليهدمها، لا أحد يدرك حجم جرم فعلته عند صاحبها، القواعد مهما بلغت طهارتها تدنس، حين تخرق لأجل مشوه يشوهها

****

بعد يومين

بدا هذه المرة غريبًا على نحو لم تعتده بينما بدت هي غارقة في حرجها يتقافز شعور الاختزال والاقتناص بنظراتها المضطربة بعد أن استعادت وعيها تصمت وكأن كل الكلمات احتبست خلف مشاعرها المظلمة وبنبرة واحدة قالا:

_أنا آسف

_أنا آسفة

رفعت عينيها إليه أخيرًا لتقول بضعف ودفاع:

_أنا أعتذر لنفسي

هتف:

_يا للعيد!

لا يستطيع أن يصدق وهو يضرب بكفه على ركبته يستمد صبرًا

فقالت:

_لمَ أنت غاضب؟.

انفجر:

_لأنكِ أخطأت.

قالت بأسى تمادى بصوتها:

_لهذا أعتذر لنفسي.

تبدل غضبه لغضب أكبر وهو يهتف:

لا تلومينها، إياك، أخطأت وانتهى الأمر ولكن إياك أن تلومي نفسك الحقيقية وتنصرين تصرف نفسك المزيفة، نفسك المزيفة التي جمدتك لسنوات عمرك كلها بالخوف وقلة الثقة والاختباء خلف قواعدك، نفسك الحقيقية التي كانت تتسلل بخجل تطل حين تشعر بالأمان.. كانت أروع ما قدمت يا آيات

الصدق، العفوية. والحب، السلام والرحمة والبساطة والحلم، المقاومة وعزة النفس، السكينة والرضا، الجمال الحقيقي كان بنفسك الحقيقية أما المزيفة فهي دفاع تتسلحين به... هناك ملايين الفتيات تتزين وتتشكلن بصورة مزيفة فتسقط قلاع وتسحر فتحب أما حقيقتها فهي شيء آخر... أنت جمالك بنفسك الحقيقية... أنت يا آيات..

دمعت وهي تقول:

_كيف رأيت كل هذا؟

قال بثقة:

_تأملتك.

بكت تهمس بحرقة تلوم نفسها:

_الواقع المخيف.. أنه كيف بإمكانك أن تعرف حقيقة شخص مزيف بدا رائعًا إلا بعد أن يطعنك؟

وافقها بالصمت والضيق

فسألته لتداويها:

_هل أستحق الحب ؟

أجابها بتأكيد:

_أنتِ أهله.

أظلمت نبرتها وهي تقول:

_أخبرتك لم يكونوا شيئًا لكن هيثم

قاطعها بحزم:

هذا الجزء ادفنيه في ذاكرتك قبل أن تُدفني، احصريه وتخلصي منه الآن وكأنه لم يكن، لن تقدري على مقاومة بشاعة ما حدث، لقد أخطأت كذلك في حقك حين سمحت لنفسي بالبحث عن حب مؤقت أخير، هذا خطأ، الحب يأتي دون بحث، يأتي بقدر لطيف لأنه يعلم ما لا نعلمه... انظري كيف كانت حكمته في تجنبك لكل هذا.. أبعدهم عنك.. حتى أتيت أنا فأخبرتك، وأقنعتك بحجة حياتك المنتهية أنه بإمكانك أن تفتحي باب قلبك الصدئ، بينما أنت كنت تحافظين على كرامتك وتقاتلين بعزة نفس رغم كل شيء حولك قمت أنا أخيرًا بفتح باب بيت الوحش المسعور بل وقمت بإغضابه فأتى ينهش منك أنتِ انتقامًا.. قمت بالبحث خلف أشخاص لم يكونوا شيئًا حتى أنك لا تعرفين تفاصيل حياتهم، لا تعرفين صفاتهم.. كيف يكون حبًا!

أنت أحببت ما اختلقه خيالك في هيئة مختلفة كلهم شخص واحد، عليك نسيانه، لتنسي تمامًا ولا تفكري أغلقي بعد دفنه وتذكري فقط حين تلاعبك ذاكرتك أمرًا واحدًا

هل يعض شخص وحش عضه؟

قالت صراحة:

_أنا لا أكرهه.

قال بهدوء: أدري.. أحببته .. ولكن هذا لا يسقط حقيقة أنك أحببت وحشًا.

وأضاف بإصرار:

_تلاشيه.

أسقطت دمعة حارقة رغمًا وهي تنطق:

_يقتلني أني ظننت به خيرًا.

قال:

_حين يقع على المرء ما فعله بغيره، سيدرك جرمه.

همست:

_سيعاني من تلك اللحظات، إحساس مريع.

تهكم كعادته وقال:

الحقيقة كما أخبرتك كلهم صورة مختلفة لشخص واحد تقسمت الصفات عليهم .. كلهم شخص واحد.

وعاد يتذكر شيئًا وبدا كأنه اكتشاف ليسألها:

_هم لا يعرفون حتى اسمك فقط ذلك الأخير، ثم أنك

قالت بإحباط:

_لم يكن هناك شيئًا ليتذكروه.

قال مبتسمًا بارتياح ولا يدري سببه:

_لم يكن أبدًا.

صمت يفكر قليلاً ثم تساءل:

_أخبرتني عن من أعجبت بهم، ولكن هل يعقل لم يعجب بك أحد

رفعت كفيها الاثنين

تراجع بذهول

فقالت:

_سمعت أحبك كثيرًا ولكن بإمكانك التوقع لم أسمح لنفسي تجاه من أحببت هل سأسمح لها تجاه من أحبني ولم أبادله شيئاً.

تفهم وفكر قليلًا قبل أن يقول:

_أحترم وضوحك.. بلى كان بإمكانك التلاعب وضمان إحساس أنك مرغوبة... كنت تتلهفين الوجود ولكنك لم تغشي نفسك، أو أحد.

وتذكر قول الشهواني باتهامه إنها تتلهف هذا، لأنها عاجزة عن إيجاد من يبادلها الشعور فارتخى بمقعده يعتليه شعور غريب ممتلئ بالثقة ثم قال:

_المعرفة هي الحق، نحن محاطون بحاملي فيروس الكذب والخداع والتلون، الوضوح معجزة، ماذا نحن فاعلون ببعضنا، ربما ما فعلتيه هو الأفضل، خشيتك.... أحسنتِ يا آيات.

****

بعد مرور 36 ساعة... في حجرة المراقبة

ربت على رأسها وهو يسحب الغطاء عليها يتطلع لوجهها الباهت، لقد بدا المرض في رحلة العد التنازلي لا ود ولا تفاهم إنه يعلن عن ضيق وقته يقف على رأسها بغير تمهل، هو لا يستوعب حاجتها.. إن الموت غادر لا يمنحهما وقتاً لترميم ما حدث

دون أن يدري أذاها، فتح عليها أبواب تجنبتها طوال عمرها، فوقع أسير حيرة ما بين الخوف والحذر

كل شخص فيهم حالة بمفردها حتى آيات نفسها حالة غير مستقرة نشأت في جدران الخوف.. لا تملك من القرار حرف.. كل ما احتاجته بين كل الأمواج المتلاطمة بحياتها هو الأمان فقط.. تظن أنها ستجده بالحب.. لكن لا

إن وجدت الأمان وجدت الحب وليس العكس

لا يجتمع الخوف والحب معًا... وكل ما مر ليس بحب.. كلها عبارات خوف.. كلها تخيلات وآمال وإن جدت فهي خاطئة، كلهم أمامهم علامات خطأ...

يتذكر قولها:

_(تمهل، لا يأخذك الحماس، وإلحاح نفسك الخيرة لمساعدتي، قد تؤذني دون أن تشعر، أنا لا أعرف أي منهم هو الحب الحقيقي الذي أحتاجه، أنا حتى لا أذكر من الأمر شيئًا، إلا القليل، ولا أظنه يستحق المبالغة، أخبرتك قد تكون مجرد حاجة)

عاد يتطلع لها وتمتم بألم:

_قلبك أعلم من عقلي.

سقط أمامها على مقعده تتعلق عيناه كخاطره نحوها تستسلم ملامحه للحزن، يأبى أن يغادر فتغادر فأهدته نفسه للجلوس عن قرب يتأمل ما حل بها، اعتصرت نفسه وفاضت روحها بهمسات ضعيفة لا حيلة لها وهو يلمس أنفاسها الضعيفة بميله إليها:

_آيات

لم تصدر أي حركة ومازالت على حال ارتخائها بأنفاسها الضعيفة المستسلمة فعاد يهمس:

_آيات ، صغيرتي، بندورتي الحمراء

تبسمت فأضاف بانشراح صدر:

_تخدعين الموت.

اتسعت ابتسامتها وهمست بارتخاء: ليتني أفعل.

رقت نظرته إليها وهو يهمس بتنهيدة من أرجائه:

_ليتك تفعلين

لم تستطع رفع جفونها وقاومت لرؤيته فبسط كفه أمام عينيها ليحجب الضوء عن مضايقتها ليمنحها القدرة لذلك استشعرت واستمتعت برؤيته بانفراج عينيها تتأمل نظرته المُفعمة بكل مشاعر الرفق

تلك النظرة أعادتها لنظرة طالما احتمت في ذكراها، حين كان والدها يظلل بجسده أشعة الشمس وهي تنحني أرضًا تربط حذاءها المفلوت لتنتهي بربطة ملتوية سرعان وأن تنفك ليعود لوقفته كظل بيت صامد لا يتخلى...

احتوتها مشاعر الشوق فتمتمت:

_يعزيني رؤية والدي هناك.

أظلم قلبه وتمتم دون أن يشعر:

_سأفتقدك.

ثم عاد يواجه نظراتها الدافئة بقول:

_تحتاجين للنوم؟

قالت: وهل ستتركني أفعل.

تفهم مقصدها فأجاب: أريدك أن تفعلي بوجودي.

قالت دون تفكير: بوجودك أشعر بالأمان لهذا أقاوم لأنني أريد أن أبقى معك.

أسعدها بقوله: وأنا أيضاً

فأرخت عينيها باطمئنان أسكن حواسه وهو يهمس: كيف حال روحك.؟

أهدته بسمة صادقة تجيبه قبل أن تؤكد قائلة:

_مطمئنة

أضاف:

_أنا آسف لما حدث

همست:

_لا بأس كان خطئي.. لا بأس ببعض الأخطاء لسنا ملائكة

قال لها:

_كنتِ كذلك

ابتسمت بوهن فأضاف:

_وغبية أيضًا

همست:

_لا بأس

قال: ومع ذلك غدًا سأحقق لك الحلم

همست : مازلت مصراً ؟

قال باكتشاف: أنتِ لا تنتظرين أحدًا ؟

فكرت ثم ابتسمت ابتسامة لم يرها قبلًا تابعتها بنظرة شاردة وهي تقول بنبرة ملؤها الشغف:

_ بل انتظر

سألها سريعاً: من؟

أجابت دون تفكير: ذو القميص الأبيض

همس بعدم فهم: عفوًا!

تابعت:

_وأنا في عمر السابعة عشر التقيت شابًا وأنا أشتري بعض الحاجات

لأمي وقفت في ذلك المحل الصغير فأتى هو بكل خجل يسألني كيف بإمكانه إصلاح قميصه الذي تمزق منه وهو في طريقه للسفر تعاملت مع الأمر بأهمية

كونه ترك الجميع ولجأ لي، تحدثنا وكأننا نعرف بعضنا، فكان يهمس لي(كم يجب عليه أن يدفع لصاحبة المحل نظير هذا) ، ظن أنني أعمل هناك فهمست بطريقته (أعطني ما عندك) ، لم يكن معه إلا بعض الفكة فأخذت منه وجمعت ما عندي وأعطيت المرأة ما طلبته برغم انها لم تصلحه فقط هو محلها وأنا من قمت بذلك العمل لأجله

_قمت بإصلاح القميص؟

_بلى فعلت.. المرأة عجوز لا تستطيع فعل هذا ولا يمكنني تركه يذهب هكذا، قمت بفعل ذلك بكل سعادة... لم يستطع أن يخلع قميصه قمت بتدبر الأمر وهو يرتديه....

تأمل نظرتها الحالمة الصادقة وهي تضيف بولع:

_فقط أردت معرفة اسمه.

سألها: لم تلتقيا أبدًا بعدها؟

أجابت: عملت في هذا المحل بشهور على أمل أن يعود، حينها كنت سأكسر خوفي وأنطقها.

انفرجت شفتاه بذهول وهو يقول:

_كلمة أحبك

أماءت برأسها موافقة بحالة لم يرها قبلًا

حتى أنها استسلمت للنوم سريعًا لأول مرة أمامه يتزين محياها بذكرى مازالت قابعة في كيانها

يتمتم بإثارة:

_يا الله

****

بعد ساعات

فتح عينيه المرهقتين المتورمتين ببكاء ليلي يتطلع للشيء بحزن دفين، حزن أرهقه ليالي وزاده الليلة بشعور مضاعف من الألم، لا يمكنه أن يتحايل على نفسه كما يفعل معها لا يمكنه أن يخفي هذا بينه وبين نفسه، كل ما أراده أن يمنحها الأبدية في أيام قليلة ومعرفة له فمنحته إياها هي والآن عليه أن يواجهها دونها

انكمشت عيناه وهو يحاول تجاوز الأمر... كلماتها تتسلل إلى روحه:

_"الوجود أيها الرفيق، لقد وجدتك دون أن أطلبك.. في وقت تلاشى كل شيء.. كنت هنا"

أخفى ملامح مرارته خلف ذراعه وهو يغطي وجهه به يهمس بوجع:

_آيات

رفع عينيه إلى الساعة بالحائط يختلس وجعًا، لم يكن الوقت يعني له مثل تلك الأهمية وها هو قلبه يخفق بألم بدقات ثواني الساعة... كما لو تسحب فؤاده إلى ظلام لا يستطيع رؤية شيء فيه سوى الألم

ففي رحلته باحثا لها عن حب تعثر هو فأحب وجودها.. ذلك الحب المتوج بالحسرة، يؤلمه أنه لا يستطيع كبت شيء تعمق لآخر ذرة بكيانه إنها كابنته كأخته.. رفيقته.. لا يستطع أن يختطفها من الموت إليه.. يتمنى لو تقاسم عمره بينه وبينها...يعتليه شعور بالفقد. إنها الرفيقة..

يحبها.. وكيف هو الحب؟

لا يمكن حصر الحب في رغبة، في هدف، في قرار... إننا نطرح سؤالاً لا يسعنا مهما فعلنا إلا أن نلامس شذرات سطحه.. إنه أعمق بكثير مما يمكن تصوره»

إنه الحب .... أولى صفحاته الاحتفاظ بوجود شخص أمام مرآة عينك معافى جميلًا..

هو حب شخص دون شيء، سيمر الوقت وتبددها الذاكرة.. لكنه سيظل محفور في جدرانها

سينساها؟ وكيف يفعل!

وكيف تحدثه نفسه... وكيف لأجلها قد لان قلبه!

أهي شفقة؟!

وإن كانت! فهي مكون سامي من مشاعر الإنسانية، لا يخلو الحب منها...

الحب خليط متجانس من كل المشاعر الإنسانية... يبدأ كل شيء به وينتهي.. هو أسمى ما تقدمه النفس لغيرها...

تنهد من أرجائه ودفع نفسه دفعا ليقف يجر قدميه بعجز يفكر فقط في مخاوفه فيخشى أن يسقط باكيًا.. ما أصابه هو الألم.. هزمه ومن يستطع أن يفعل سواه

رن هاتفه فالتفت إليه بحدة قلبه يدق بين أضلاعه بعنف تحتد نظرته برعب وسريعًا التقطه ليسمع صوتًا بهتت له ملامحه أكثر....

****

قاد سيارته بقلب مظلم يعتصر وجعًا

يحدث نفسه بحسرة:

_كيف يخبرها أنه لم يستطع أن يحقق لها ذلك الحلم، أن تجد من يحبها كما هي وفي أصعب أوقات حاجتها... كيف يخبرها بأنها توهمت في نهاية الحلم

كيف بإمكانه أن يخبرها أن كل اختياراتها سوداء.. كلهم أمامهم علامة الخطأ

كيف يخبرها أنه تمنى ألا يقتربوا منها برغم انتظاره... فلم يفعلوا ولن يفعلوا... لم يكن حبًا.. لم يكن أحدهم لها المعلم الذي لا يتذكرها ولا يستطيع ان يعرف نفسه ليعرفها، لا يمكنه ان ينظر إلا من خلال مخاوفه، هو في عالم بعيد كل البعد عن المشاعر التي تحييها مجرد نظرة مراهقة لرجل تبددت مشاعره نحو كل شيء، لا يمكن أن نحتسب المراهقة حبًا بالأساس.

ف المعلم شخص تائه لا شخصيه له لتبقي في حماه مرأة، إن لم يكن شخصًا ذو اعتبار سيظل ضحية تتلاعب به الإناث، فما من أنثى حقيقية ترغب برجل اسما فحسب ببطاقته.. عليه أن يكون أكثر وجودًا، أكثر ثباتا، اقل حماقة، لا يمكن أن تلوم المرأة إن لم تجد من يكملها.. لا يمكن أن تلومها أن كنت لا شيء...

أما السيكوباتي المختل مُهاب.. هذا قادر علي دفعها للانتحار بصفاء نفس إن اقترب منها .. لا يجدر التعامل معه بالأساس، يجب فقط التبليغ عنه حتى يتم احتجازه.. إنه يؤذي من حوله دون شعور منه.. عليه أن يجد علاجه.. شخصية كهذا لا يمكن المحاولة معها لإصلاحه علاجه الترك إلى أن يتحسن، صعب للغاية أن تحاول مع شخص لا يفهم نفسه ستتأذى دون أن تشعر... هو غير واعي لحال نفسه وما يمكن أن يفعله بغيره، سيحرقك وسيشعل سجائره من نيرانك ثم يلومك.. أو يبكي عليك.. لا يمكن أن تفهم خطوته التالية هو منهك.

أما عبد الوهاب البراق الذي يرى من العالم فقط رغباته، عبد رغباته، يرى العالم من خلال مرآته، نفسي نفسي، شخصًا أناني مثله، لا يعني له أحد.. يريد كل شيء.. كل شيء وكأن الأرض خلقت له، يحيا بمخيله كون خلق فيه ليخدمه الباقون وكانه الحي الوحيد وحوله كل شيء جماد، لن ينظر خلفه.. أنه صنم، لا يعرف ماذا يريد.. أو يعرف، ولكنه مُنهك مؤذي.. لا شك أن دواه شخص مثله

أما ذلك المستضعف ممدوح، يحيا بدور الضحية، كقط أليف ولكنه معدوم الضمير والاخلاق، فارغ أجوف، خبيث

كيف للمرء أن يميزه إلا بعد أن يؤذى منه!

أما هيثم، القذر الذي يشبه العنكبوت هش الأرجل فقط يدور حول فريسته ليقتنصها ثم يبدأ بالتمكن منها حتى يتركها جثة لا حياة بها.. ينظر للمرأة بنظرة دونية قذرة، عبد لشهواته

يجد متعته بالإيذاء، فلا يحترم مشاعر مخلوق، وقد فعل.. أذاها

تجنب أشخاص مثلهم بهذه الصفات.. حياة

كلهم مزيفون كأشخاص..... دون حب دون وجودها.. هم كبشر.. مزيفون

ولا يمكنه أن يقدم لها شيئًا مزيفًا..

أشاح بعيدًا يحدث نفسه بضيق وهو يقود سيارته السوداء كما تلون ما حوله:

_حظك مثل بئر ملوث بالعطن... كم كان الموت بك رحيمًا يا تعيسة.

وعاد يتطلع للطريق أمامه في شرود يعتصر قلبه وعقله بعجز

تسلل لغرفتها كالعادة بهدوء يتطلع لذلك الوجه المحتضر أمامه باستسلام يتخذ قراره بالصمود إلى ٦ النهاية يغوص في أعماق لحظتها تلك كم بدأت قوية بضعفها، مختصة بوجود لا شبيه لها فيه، غاص بها حتى استسلم للغرق ولفظ كلمته الأخيرة لها هامسًا بصوت مبحوح:

_"تقول الطبيبة أنك ستعيشين يوماً آخر"

همست بعد إدراك صوته برغم إغماض عينيها وحالتها التي بدت فاقدة للحياة إلا أنها شعرت بهالة آمنة جعلتها تلفظ مازحة:

_"كاذب"

اكتسى وجهه بالحزن رغماً:

فأضافت وكأنها تراه بصورته الأولي أمامها، صورة عالقة بذهنها، ذلك الفريد الذي قرر أن يكون لأجلها هنا

_" رأيت أبي هو ينتظرني"

انكمش قلبه خلف أضلعه وهي تردف بارتياح:

_"كان مبتهجًا، كبهجتك وأنت تكتشف أن اختياراتي كلها خاطئة "

اختنق صوته وهو يقول:

_"غبية "

همست بوهن: "أدري"

ثم أردفت باهتمام:

_أريد أن أخبرك أمرًا بشأن غبائي

قال :

أعلم، بالأساس كل ما أخبرتني عنه غباء

قالت بتأكيد :

_الرفقة أفضل من الحب.

استمع لها فاستكملت:

_وكذبت مرة

منحها كل اهتمامه وهي تبوح:

_لم أسجل رقمك أبدًا، لأنني لا أملك هاتف.

مال وقال:

_أريد أيضًا أن أخبرك بشأن غبائي

همس لها عن قرب:

_الرفقة هي الحب

و كذبت مرة، رفع كفه وهو يضيف:

_أنا أرتدي خاتم خطبة حتى لا تقع النساء بحبي

ضحكت بوهن وقالت:

_اطمئن، لم أكن أنوي إفساد العلاقة الصالحة الوحيدة في حياتي بالحب.

قال بحسرة وتأكيد:

_ولكني احببت وجودك.. وأنت كذلك أحببت وجودي وهنا يكمن السر...

واقترب هامسًا:

_الوجود الصادق

رددت:

_الوجود الأصدق.

اعتصر قلبه لحالها وهي تحاول ألا تستسلم

رفرفت بعينيها تقاتل لرؤيته ولكنها فشلت ولم تستطع فتح عينيها حتى، لتدفع بالقول:

_أردت رؤيتك"

لم يستطع أن يخدعها وهو يقول بصوت منكسر:

_أردت أن أحقق لك الحلم..

تمتمت:

_لقد فعلت يا غبي..

مال حتى سمع صوت أنفاسها الضعيفة وهو يسألها ببهجة:

_هل فعلت؟

ابتسمت بإرهاق ابتسامة لم يقدر المرض أن يخفي حلاوتها فهب سريعًا من مكانه وشعرت به يحيطها بذراعيه القويتين برفق ثم يحملها إلى صدره،

استشعرت دفئه ودفنت نفسها بهذا الشعور وهي تنكمش فيه، تتخلى عن خوفها الدائم لأول مرة من خلاله فباتت رغبتها فقط إغماض عينيها لتحظى بكامل إحساس دفء احتوائه

وخطوات ثم نسمة رقيقة داعبت وجهها وهي تحاول فتح عينيها أخيرًا للاستكشاف وصوته يخترق كل هذا بحنان قائلًا:

_حاولي أن تنظري

سألته بضعف:

_هل هي النافذة؟

سمعت إجابته بهمس رقيق:

_بلى

قاومت برغم كل ما أنهكها لتفتحهما... شبورة عارمة... رؤية ضبابية... سحابة مزعجة ثم تلونت رؤيتها بالأبيض، عادت ترمش

تدفع جفونها دفعًا.. إلى أن التقطت المشهد

كان هناك أكثر من مائة شاب يرتدي القميص الأبيض يقف صفا أمام مرآتها يحمل الورود... لم تصدق ما تراه وهي تسقط دموعها الصامتة المبتهجة لتنظر إليه شاكرة

و

كان يرتدي نفس القميص

تأملته... كان كل شيء

بكت بصوت مختنق، بكاء ضج بقلبها طربًا، دموع فرحة تمنتها

وضمها أكثر إليه يهديها أول ضمة حقيقية دافئة.. ضمة صالحتها من قسوة العالم وقباحته، ضمة احتوتها فطردت كل مخاوفها، ضمة جعلت كل شيء آمنا، خطفتها من واقع رأت فيه موت والدها، لواقع داوى كل جروحها، ضمة حقيقية

صادقة، صالحتها من شعور الاختزال والانتقاص الذي كواها، ضمة لا يشوهها تلاعب أو نوايا سيئة، ضمة احتواء عوضتها جفاء أمها، انتزعتها من زيف الواقع لروعته، ضمة حب غير مشروط

ضمة أولى وأخيرة استسلمت لها قبل أن تستسلم..... للموت.

بعد ثلاثة أشهر

تنهد الجالس بمعطفه الثقيل أمام مكتب الدكتور أحمد يتطلع للأوراق أمامه من خلف نظارته في ثبات وذلك الأخير يراقبه في هدوء وقد نمت لحيته وشاربه على نحو غير ملامحه وهو يقول برزانة:

_يمكنك إعادة التحاليل إذا كنت قلقًا.

التفت إليه الجالس من خلف أوراقه وقال:

_لا لست قلقًا، أنت طبيب مميز في مجالك، لقد تحريت عنك قبل أن آتي، تعلم أنا أعمل بقطاع الشرطة لكن اضطرتني الظروف ذات مرة لتعلم ما يرص بقائمة التحاليل من حروف وكلمات، وأنا مطمئن للغاية، أرى النتائج لا بأس بها ولا أظن أن فقر دم قد يقتلني.

ووضع الأوراق بيده أمامه وهو يضيف:

_مثل آيات.

تسمر الطبيب مكانه وهو يردد: آيات!

وضع الرجل ساق على الأخرى وهو يستطرد بأهمية:

_أخبرتك أني تحريت، أقسم لك حاولت يا صديقي أن أجد ما يجعل من فقر الدم سببًا قاتلًا في مدة شهر!!

ورفع عينيه وهو يضيف:

_ولكني لم أجد.

ثم أردف ضاحكًا بأسف وهو يلوح بكفيه:

_ولكن ممكن للورم أن يقتل.

ظلت ملامح الدكتور أحمد ثابتة دون انفعال بينما يتطلع له الرجل مليًا قبل أن يقول:

_أتي من أسبوعين شابًا غاضبًا يقتله الجنون يحمل أوراق، هي تحاليل وأشعة لفتاة يقول أنها اختفت وأخذها طبيب ليعالجها، كما اعترفت أمها قبل انتحارها بمواجهة بينها وبينه، دفعتها لإحراق نفسها، قالت أن الطبيب الذي أجر شقتها

أخذها ليعالجها.. لكن

ومط شفتيه مفكرًا قبل أن يستطرد بتساؤل:

_يعالجها من ماذا!... والتحاليل تثبت أنها لا تعاني من شيء.. كل شيء سليم فقط نسبة الهيموجلوبين تسعة، فقر دم قادرًا أن يصيبها بالإرهاق والغثيان والهبوط والصداع و... لكن ليس بالموت المؤكد، أحيانًا هذا يقتل لو كان هناك من يوهمك بأنك ستموت.. ولكن حتى هذا لم يثبت بالطب صحته.. لابد من وجود مرض، داء لا يمكن علاجه.. اممم في حالته المتأخرة مثلاً.

أغمض دكتور أحمد عينيه وذلك يردف:

_صدقني لم أكن أفكر أبدًا بزيارة هذه المستشفى بحياتي، لولا تعليق ممرضتك التقية التي أخبرتني من خلال إعلان تافهة في إحدى الصفحات على الإنترنت وضعه زوج أمها عن اختفاء آيات، بشأن الغرفة ١٠١ التي تبرعت بتجهيزها ونفقات علاجها، هكذا يفعلون أصحاب القلوب الكبيرة ورجال الأعمال ولاعبي الكرة والفنانون، وأنت....

وتنهد يسند كفه لذقنه يهمس باستنكار:

_قلبك كبير مثلما ذكرت الممرضة هناك، ما زالت تتحدث عن قلبك الرقيق وتوصياتك بأن تحافظ على مشاعرها ولا تخبرها إلا ما تريده أنت.

وحرك كفه ليحك فروه رأسه بتفكير ثم تطلع يسأله مباشرة بخفوت:

_لكن هي كما أوهمتها، وأوهمت الجميع مريضة بورم في حالته المتأخرة، فلِمَ هذه المشفى! هيا أخبرني، لم أفهم كثيرًا من اعترافات شريكك الدكتور...

وعاد يتطلع للتحاليل الأخرى التي أخرجها من حقيبته وقال:

_حسام شفيق..

ووضعها أمامه يستكمل حديثه بإشارات كفه المحللة:

_هو يرسل إليك المريضة المناسبة، توافق ما بالتحاليل، تجارة رابحة ثم التحري عنها وإعطاء الضوء الأخضر لتستلم أنت مهمتك بعد ذلك، المهمة الأكبر والأهم، للرجل الأذكى والتي تقوم فيها بإخبار مريضتك بمرضها المميت، ثم تتبعها بقلب عظيم، إلى أن تقوم بإيداعها بغرفتك التي تحملت تجهيزها بالمشفى، ورعايتها بإشرافك الدقيق وقلبك الملائكي، ومع بعض الأدوية التي تسبب حالة من الإرهاق الزائد والكآبة وال .... الوهم

سرح قليلاً وهو يفكر يدير عينيه في المكان دون اهتمام ثم واجهه وهو يضيق عينيه بتساؤل:

تعلم؟ ! .. لو كان هذا عملكما، لأنتهي قبل شهرًا، مده وجودها، لكن أنتم تتبعون الأوامر أليس كذلك، أن تظل في قبضتك إلى أن..... يقرر..... الطبيب

وضاقت عينيه أكثر ببريق مندهش يتطلع لعين الطبيب المظلمة وهو يضيف:
_وحين قرر، فُرغت الجثة من أعضائها وهي مخدرة بوهم نهايتها ...سلمت عملك في وقته المحدد...صفقة رابحة! واو، أجدت عملك، لم تهدر في شيء، اعتنيت بتجارتك، واتبعت الأوامر،..

وطرقع أصبعيه وهو يهتف باكتشاف:

_بلى... هناك أعضاء لا تصلح للحفظ

ابتسم ابتسامة باهته وهو يهز رأسه عاقدًا جبهته بازدراء، يحاول استيعاب ما يجري، ومال برأسه إليه وهو يواجهه بصرامة هامسًا:

_أين دفنت ما تبقى من الجثة؟

طال الصمت بينهما حتى هدر المحقق:

_أين دفنتها؟

ظلت ملامح الطبيب ثابتة دون انفعال ثم هب من مقعده يستدير حول مكتبه بخطوات هادئة واثقة راقبها المحقق عبر حذائه الاسود المميز حتى وقف أمامه قائلًا بثبات:

_أحييك، أنت تجيد التوقع ولكن هذا درامي للغاية، وأنا رجل واقعي، أعمل طبيب و مهمتي انتهت بوفاة المريضة..

وجلس على طرف مكتبه يزيح بإهمال التحاليل مردفًا بنفس الثبات والهدوء:

_حتى المعمل لا يعترف بهذا، جرب، وشفيق مجرد زميل حاقد، لدي شهادة تثبت بعدم قواه العقلية، والمشفى هي المسؤولة عن استقبال المرضى، لا يمكنك أن تعترض على عمل مستشفى خاص للطب النفسي احتجزت مريضة، ألم تكن كذلك!؟ وأنا قلبي كبير كما تعلم لذا من الواجب على الدولة تكريمي من أجل تبرعي بتجهيز إحدى الغرف ، واهتمامي بالمرضي الذين لا يملكون مقابل

يومًا واحدًا بالمشفى، والمريضة كانت.... أعني عانت ظروف صعبة بعد وفاة والدها واعتداء زوج أمها عليها، اصيبت باكتئاب ومشاكل نفسيه كانت تصرخ وتبكي طوال الوقت، يا إلهي هذه أسرار مرضى ولكن أنا أثق بك، تبدوا شخص صالح طيب، لن يشي بخصوصيات مريضة، تعلم هذه الأيام لا توجد أمانة كل شيء يفضح عبر وسائل التواصل الاجتماعي، أصبحت مهزلة، وهي فتاة وحيدة لذا حاولت مساعدتها حتى أنني أردتها أن تجد هدفًا، حبًا، ولكن لم يأتي، لم يأتي أحدًا، ربما لو أتي.....

مسحة حزن مرت علة وجهه وهو يستأنف حديثه بثقة:

ولكنها أنهت حياتها بيدها قهرًا، لم تتحمل، كذلك فعل من قبل والدها ثم والدتها، على الأغلب لم تتحمل فراق ابنتها، هذا صعب للغاية ...

وبلل شفتيه بلسانه يضيف بتأثر:

أخشى أن أبكي الآن كلما تذكرتها، لقد بكيت كثيرًا يومها، كما تعلم قلبي كبير، على كلا الجثة استلمتها والدتها، اذهب واسألها، آه نسيت هذه عائلة تعيسة ماتوا جميعًا منتحرين، لكن اذهب وتحري الأمر، المشفى لديها كل الأوراق التي تثبت ما أقوله وحتى تقرير استلام الجثمان لأمها...

ومسح دمعة لم تطل وهو يردف بتنهيدة ملل:

_وها يا صديقي لا يوجد دليل لافتراءاتك.

ومال إليه بهدوء يتطلع لعينيه مباشرة بثبات هامسًا بخطورة:

_إن لم تكن هناك جثة

تراجع المحقق بدون فهم وذلك يميل إليه أكثر،، يواجهه وجهًا لوجه يضيف هامسًا له بغموض تهديد شرس:

_وإياك والتفكير.... أن تقترب من جثة مريضتي!

تمت

***قرائي الأعزاء:**

القصة من وحي خيالي ولكن الشخصيات بالرواية اتخذت من وصف أنماط حقيقية بالواقع على لسان ضحاياهم، أو الأشخاص أنفسهم، وليس نظرة شخصية، دون التعمق، حاولت قصارى جهدي توضيح باختصار مشكلة كل نمط تسبب في معاناة غيره، داخل إطار تراجيدي نفسي مختصر، وسواء كان أو كانت، فالهدف إلقاء الضوء وتجنبه... بل كل محاولة دون إرادة من الطرف الآخر انتهت بصنع ضحية أو شبيه.. إصلاح أنفسنا أولى.. وتجنب إهدارها حق.

وبرغم النهاية، وقسوتها، إلا انني اؤمن (رأي شخصي)

ولا يمكننا أن ننكر

"أن الحب حقيقة كاملة..... كل ما يحتاجه أهل غير مزيفين.

فقد يدمر كل شيء علاقة فاسدة ويصلحها أخرى صادقة، يوجد

صادقون رغم أنف تخوفنا."

أهم ما قالوا ودونته:

(تم نقلها وصياغتها بالفصحي...)

***هؤلاء الذين تضعهم في مكانة بقلبك يحيطها الثقة والمودة سيختبرهم موقف عابر ..إما يملؤون أماكنهم أو يسقطون للأبد.**

***قل لنفسك دائمًا... أنا أستحق... أنا لا أحب الأفلين**

***إياك أن تبقي على علاقة شوهتك.. اقتنصتك.. خذلتك**

جعلت منك شخصًا يسأل نفسه

هل أنا أستحق هذا؟

***أنماط مختلفة والأسر واحد.. تجنبوهم.**

***كوني أنتِ الأمنية.**

***نحن مرآه أنفسنا، نحن المسؤولون عن رؤية الناس لنا، فإن كنا أفضل التصقوا بنا، لذا فلنعكس الأفضل.**

***وإن لم نجد الحب، ماذا خسرنا!**

***جوعى الحب.. متسولون.**

***إن خسر المرء نفسه ليكسب شخص.. عليه ألا ينسى أنه أصبح رخيصًا**

***لهذا القلب ثمن، قيمة، قلوبنا مكانة..... ليس الكل لها.**

***الغباء.. داهية**

***أفق من وهمك وسحرك وأخبر قلبك كفى.**
من لم يقدرك..... من لم يضعك بنفس المكانة
أخبر قلبك حينها أنه.... لم يكن أبدًا لها... كان.... إفْكٌ

#شكرا علي ثقتكم
#ليلة_الفاوي
Leeliahamada@gmail.com